ابن بطوطة الرحالة

وكيف صور المجتمع الإسلامي في عصره؟

تأليف

حسن عبد السميع محسن

الكتاب: ابن بطوطة الرحالة وكيف صور المجتمع الإسلامي في عصره؟
الكاتب: حسن عبد السميع محسن
الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور - الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

محسن، حسن عبد السميع
ابن بطوطة الرحالة وكيف صور المجتمع الإسلامي في عصره؟/حسن عبد السميع محسن
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٨ – ٢٣١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٩٧٨٩ / ٢٠٢١

ابن بطوطة الرحالة

وكيف صور المجتمع الإسلامي في عصره؟

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

بسم اللّه الرحمن الرحيم

"وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كثيرًا وَسَعَةً"

(سورة النساء)

صدق الله العظيم

مقدمة

ربما لا نكون مغالين إذا ذهبنا إلى أن الرحلة هي العامل الوحيد لاكتشاف ما وراء الستار. وهي الكشاف الذي به يذوب الظلام، وهي العلم الذي به معرفة المجهول. الرحلة وسيلة ضرورية من وسائل الحضارة والمدنية. وأن القارئ لتاريخ الحضارة العالمية يرى أن الرحالة والمكتشفين هم محور الارتكارز في تقدم العالم وكشف النقاب عن مجهوله. أما وقد عرف العلم مهمة الرحالة واعترف العلماء بفضلهم فلا غرو أن ننحى منحى هذا ونذهب مذهب هؤلاء ونقول بملء فمنا: إن الرحالة مهما طالت رحلاتهم أو قصرت لم يكونوا سوى مدرسة علمية وعملية لدراسة أحوال البلاد ومعرفة حالاتها الاقتصادية، والاجتماعية، والعقدية.

بهذا نستطيع القول: بأن ابن بطوطة لم يكن سوى مصباح أحرق نفسه ليضيء للآخرين وليبين للقوم ما لم يعلموا، وليسوق لهم أفانين مختلفة من الأحوال الاقتصادية وألوانًا متباينة من السلوك الاجتماعي.. وليقدم لهم في تواضع جهد مرتاد، وجواب جاب الآفاق في وصف البلاد وهادها ونجادها من الطبيعة السهلة حول الأنهار والبحار، حتى الحياة الصعبة وخشونة العيش بين منعطفات الشعاب والتواءات الصحاري.. وليرسم أمام النظارة صورة واضحة المعالم، محدودة التقاسيم لأحوال المسلمين وحالة الناس في المجتمع الإسلامي في الشرق كان أم

في الغرب، مال نحو الجنوب أم عرج إلى الشمال.

وعلى ضوء هذا الجهد الكبير الذي أضنى الشيخ (ابن بطوطة)، تقوم دعائم هذا العمل المتواضع ويسير هذا البحث الموجز في خط مستقيم قصير لا نميل فيه إلى الطول الممل ولا إلى الاقتضاب المخل؛ لهذا روعيت فيه طريقة العرض الإيجازي الذي هو أميل إلى الوقوف على قمم الأحداث وإهمال الجزيات الذي يتطلب إهمالها بحث كهذا لا يسمح فيه بالإطناب.. وحرصًا على الأمانة العلمية، وإنصافًا للعدل، واستجابة لصوت الضمير؛ رأينا من الصواب أن نعرض لآراء لفيف من العلماء والباحثين في رحلة ابن بطوطة، ثم علينا بعد ذلك أن نعرض للموضوع من زاويتنا الخاصة ووجهتنا نحن، وسوف يكون ذلك حسب معرفتنا. وقد انتهجت في بحث هذا منهجًا جديدًا خالفت فيه كل من كتبوا عن ابن بطوطة؛ وذلك تمشيًا مع من يشترط من الباحثين المحدثين في أن كل بحث لا بد أن يأتي بطريقة غير مسبوقة؛ وذلك أن الذين كتبوا عن ابن بطوطة ساروا على منهج إملائه الرحلة على ابن جزي الكلبي؛ يبدأون بذكر نبذة عن حياته، ثم يسيرون مع الرحلة من «طنجة» بالمغرب حتى «تكدا» بالسودان الغربي، مع الاختصار الشديد. وفي أثناء ذلك يعرضون كل مواقف ابن بطوطة ومشاهداته في مختلف البلدان.. أما أنا فقد قسمت البحث إلى ثلاثة أبواب.

الأول: وفيه أتحدث عن الترجمة لحياة ابن بطوطة، وحتى لا ننساه في زحمة الأحداث سطرت في ذلك مواقفه الخالدة كحياته: قاضيًا،

وجغرافيا. وحياته اجتماعيًا، ثم رؤيته للعلماء والصالحين مستشفًا ذلك من قراءتي للرحلة كلها.

الثاني: ويتحدث عن رحلات ابن بطوطة أقسامها أولًا، ثم رَسم خط سير الرحلة في مختلف الأصقاع، مع توضيح ذلك بعد خرائط، ثم الحديث عن غرائب الرحلة، ثم الشك في وصوله إلى بعض الأقطار وآراء العلماء في ذلك. وذلك حتى آخر الحديث عن الرحلة.

الثالث: وفيه نبين كيف صور ابن بطوطة المجتمع الإسلامي في عصره وحضارة ذلك المجتمع.. وهذه الطريقة سوف تعطي القارئ فكرة سريعة عن حياة رحالتنا العربي العظيم، وترسم أمامه صورة واضحة المعالم لكل زاوية في رحلته؛ بحيث يأخذ صورة كاملة؛ فمثلًا في فصل خاص يعرف كيف ولي ابن بطوطة منصب القضاء، وفي أي البلاد كان ذلك.. وهذا ولا شك يوفر على القارئ قراءة الرحلة كلها لمعرفة ذلك الموقف الخاص بالقضاء.. كذلك يستطيع القارئ العجول أن يرسم في ذهنه صورة لمئات المدن والقرى التي مر بها ابن بطوطة حتى يعرف قيمة جهده الكبير دون أن يشغل نفسه في تلك الأثناء بحكايات وغرائب.. أما صورة الباب الثالث وهي تصوير المجتمع؛ فقد جاءت خالصة هي الأخرى من حكاياته وحديثه عن زيارته للقبور والزوايا، بحيث ترسم أمام القارئ صورة المجتمع الإسلامي وحياته في داخله.. بهذا نعتبر الباب الأول دراسة لشخصية كبيرة، والثاني دراسة خاصة بالجغرافيا، أما الثالث فدراسة خاصة بالحالة الاجتماعية لمجتمع القرن الثامن الهجري في

البلاد الإسلامية. أما منهج الأبحاث التي اطّلعت عليها والتي كتبت عن ابن بطوطة، فأغلبها يوعي القارئ بين حكايات وغرائب، ووصف طرق ومزارع وبلاد لا يستطيع الإنسان أن يفرقها عن الرحلة الأصلية التي أُلّفت في عصر لا يعرف مناهج البحث، كما لا يستطيع الإنسان في هذه الأبحاث الربط بين المواقف المتشابهة.. لهذا كله.. انتهجت هذا المنهج وآمنت به.

تمهيد

الرحلة حتى ابن بطوطة

إن تاريخ الإنسان كما يبدو بين سطور التاريخ ما هو إلا محاولة ملحة للتعرف أولًا ثم السيطرة ثانيًا على العالم الخارجي من حوله.

لقد بدأ الإنسان يناضل قوى الحيوان فترة زمنية، بعدها تحول إلى مناضل لقوى أخرى هي القوى الإنسانية، ونمت لديه موهبة حب الاستطلاع؛ وهنا تكونت القبيلة، ثم تكونت الأمة التي اندفعت من إقليمها إلى ما جاورها من الأقاليم لاكتشاف ما وراء الستار من آفاق جديدة. ولا يخفى على ذي بال أن بدء هذه الرحلات كان ضيقًا إلى حد ما.

لقد ولد الإنسان راحلًا بطبعه، وحينما تعز عليه الرحلة في الحس يتمثل في نفسه رحلة، وخير ممثل لذلك أساطير الحروب والفتوح. حينما يقرأ الإنسان أسطورة من هذه الأساطير يرى دولًا قد اندكت، وحصونًا قد فتحت، وأبطالًا ماتوا في حومة المعركة، وكل هذا لا أساس له من الحقيقة.

وللرحلة ماضٍ بعيد تصل أبعاده حتى فراعنة مصر، فقد سجّل ملوكها رحلاتهم في آسيا على جدران معبد الدير البحري بمصر العليا «الصعيد حاليًا».. وكان ذلك على هيئة تصاوير رائعة لسفن الملكة

حتشبسوت وهي عائدة من رحلتها إلى بلاد «بونت» في الجنوب.

وكان للفينيقيين دور كبير في القيام بالرحلات البحرية، خاضوا فيها عباب المحيط الأطلسي، وحطوا رحالهم في الجزائر البريطانية.

ويخلفهم الإغريق في إقامة مستعمرات لهم على طول الطريق على بحر الروم في الجنوب وفي أسبانيا. وبهذا قدموا لنا معارف جغرافية لا بأس بها، وكلنا يعرف أنهم أول من قالوا بكروية الأرض، وبأن وراء البحار والمحيطجات عوالمًا مسكونة. وأكبر رحالة عرفه الإغريق هو: (هيرودوت). ثم تصبح روما عاصمة العالم القديم، ويتوغل بنوها في أصقاع إمبراطوريتها. وممن برعوا في الرحلات الواسعة (تاسيت) الذي قص أحوال «اليتوتون» الأوائل في كتابه (جرمانيا). وفي القرن الثاني الميلادي نلتقي ببطليموس الاسكندري وهو إغريقي الأصل، وقد ترك لنا كتابين في الجغرافيا والفلك.

وفي القرن الثالث الهجري –من حدود الهند شرقًا حتى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن جبال القوقاز وآسيا في الشمال حتى الصحاري الأفريقيا في الجنوب– بدأ ارتياد لفيف من المسلمين من ذلك القرن، ودأبوا على التجوال خلال الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف. ولم تتجاوز هذه الرحلات حدود البلاد الإسلامية لأنها أخذت من الصبغة الرسمية ما جعلها ضيقة النطاق لا تتعدى وصف المشاهدات، فكان القصد منها في بادئ الأمر توطيد الصلة بين الحكام والأمراء. فكان الرحالة في حقيقة أمرهم مبعوثين من قبل الحاكم المركزي

ببغداد لوصف أحوال البلاد والحديث عن مناخها وجغرافية أرضها؛ حتى يسهل ربطها بالعاصمة، ولكي يُعين ذلك على تطبيق أحكام الشريعة في كل المماليك. هذا من حيث الرحالة وأنهم بدأوا مبعوثين من قبل السلطان، أما التجار المسلمون وغير المسلمين فقد اخترقوا الحدود حتى الممالك الأجنبية المجاورة؛ فوصلوا شرقًا بلاد الحرير والعاج، وشمالًا بلاد القوقاز، وغربًا جبل طارق. وعن طريق الرحلات الرسمية والتجارية درست كل أحوال الممالك دراسة شاملة؛ سواء أكانت إسلامية أم أجنبية، مع ملاحظة عدم تحري التجار في نقل الأخبار. وكان هناك من الأسباب القوية التي دعت إلى الرحلة قبل ابن بطوطة ما هو أحرى بالذكر وهو حج بيت الله الحرام. فقد شجع هذا الكثير على معرفة أحوال البلاد التي يمرون بها ودراستها.. حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم قصوا على قومهم ما شاهدوه وما سمعوه. ودَوَّن كثيرٌ من الحجاج هذه المعلومات بعد عودته، ومن هؤلاء: ابن جبير الأندلسي، وابن سعيد المغربي؛ وما ذلك إلا لينتفع بها سائر المسلمين ولتساعد على أداء مناسك الحج. ولهذا امتلأت مؤلفاتهم بأحوال البلاد الإسلامية من ناحية التجارة، والاقتصاد، وطبيعة المزاج، وينابيع الثروة والرخاء.. والآن نجد أنفسنا مضطرين لذكر هذه الآثار التي خلفها الجوابون العرب قبل ابن بطوطة وهي:

معجم البلدان لياقوت الحموي، مروج الذهب للمسعودي، تاريخ الهند لأبي الريحان محمد البيروني، عجائب البلدان لأبي دلف بن

مهلهل الشاعر، المسالك والممالك لأبي عبيد البكري الأندلسي، رحلة ابن جبير، المغرب لأبي سعيد المغربي.

ولقد ذهب الدكتور: زكي محمد حسن في كتابه (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى) إلى أن العرب في العصور الوسطى قد أتيح لهم أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات، والاكتشافات، والدراسات الجغرافية. وهنا يظهر فضل العرب على أوربا، حيث أفاد الأوربيون أيما إفادة من جهود المسلمين، وكان المشجع على ذلك هو حضارة الإسلام، وطبيعة الدين الإسلامي، وسيادة المسلمين في البر والبحر.. وازدادت قوة الروابط عظمة في العصور الوسطى؛ فكان لا بد من وصف هذا المُلك الواسع الذي أسسه المسلمون وذلك -كما أشرنا- تمهيدًا لتطبيق أحكام الشريعة، وتسهيلًا لمهمة الولاة. وعصر كهذا تندر فيه الكتابة كان من الطبيعي أن تكون الرحلات والأشعار من أول السبل لطلب العلم. والدراسة العلمية كانت تقوم مقام ما نصفه اليوم من تتبع المراجع وتفنيد المؤلفات.. هذا هو المشجع الحقيقي، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من الحج واتساع نطاق التجارة عن المسلمين اتساعًا لم يبلغه عند شعب آخر قبل كشف أمريكا. وفي الجزء الأعظم من العالم المعروف آنذاك، اخترقت قوافل المسلمين الفيافي فكانت الرحلات الطويلة.

وللحفاظ على الأمانة العلمية لا نستطيع الجزم بأن كثيرًا من تجار المسلمين أنفسهم وصلوا إلى أيسلندة، أو النرويج، أو جزر بريطانيا.

ولكن العود إلى كتب الرحلات وتقويم البلدان عند الرحالة العرب والمسلمين، يشير إلى تجوالهم وترددهم على جنوب روسيا، وأنهم قد وصلوا أوربا الوسطى –وقد أثرى التجار ثراءً عظيمًا، وحسبنا ما ذكره ابن جبير وابن بطوطة من أن التجار في عدن كانت لهم ثروات طائلة– وبعض المسلمين كان يجمع بين طلب العلم والتجارة. ومن الطبيعي أن كثيرًا من المسلمين كانوا يرحلون سعيًا في طلب الرزق.. هذا كله مع ملاحظة أن العامل الوحيد في الاهتمام بالرحلات في أول أمرها والذي أميل إليه هو كما أشرنا من أن بعض أمراء المسلمين وغيرهم، وأن السلطات المركزية كانت دائمًا على اتصال بالأقاليم عن طريق هؤلاء الرسل.. وأدّى ذلك إلى القيام برحلات طريفة إلى أصقاع لا يألفها المسلمون.. من ذلك رحلة ابن فضلان إلى جنوبي روسيا، مع مراعاة أن إباحة تعدد الزوجات في الإسلام كانت تخفف بعض متاعب الأسفار ولا تجعل الرحالة محل شكوك أو مصدر متاعب في السلوك الاجتماعي.. ومن القصص الطريفة التي تشهد باتساع الأسفار الإسلامية تلك القصة التي رواها الرحالة العظيم ابن بطوطة، وتشير إلى أن الرحالة وهو يجوب آفاق المعمورة كان يصادف مواطنين له من التجار السياح، قال أثناء إقامته بمدينة قنجنقوا بالصين ما ملخصه: أنه كان في دار ظهير الدين الفرلاني، فدخل عليه ركب بعض الفقهاء، فقال القوم: مولانا قوام الدين السبتي، فعجب من اسمه، وبعد السلام أطال النظر إليه وعجب هو الآخر. فقال له ابن بطوطة: من أي البلاد أنت؟.. فقال من سبتة (على شاطئ مراكش في مواجهة جبل طارق). فقال ابن بطوطة: وأنا من طنجة،

فجددا السلام. والمعروف أن الرحالة لم يدونوا مطالعاتهم وأخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها، بل أدمجوها كثيرًا في التاريخ؛ لهذا ضاع كثير من الرحلات مع الزمن.

ومن هنا نستطيع أن نُجمل أسباب الرحلة عند العرب متبعين في ذلك منهج الدكتور شوقي ضيف في كتابه (الرحلات) وهي:

١- سبب سياسي: وهو معرفة الطرق التي تصل الدولة الكبرى بأقاليمها.

٢- سبب ديني: وهو الحج.

٣- سبب اقتصادي: وهو التجارة.

وذلك بالإضافة إلى أنه قد تكون الرحلة حبًا في الاستطلاع، كما نعلم من أخبار رحلة سلام الترجمان بأمر الخليفة الواثق ٢٢٧هـ - ٨٤١م. للبحث عن سد الصين الكبير الذي يقال: أن الاسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج.. لهذه الأسباب كثرت الرحلات عند العرب وتنوعت وتعددت حوافزها الدينية، والاقتصادية، والسياسية. ونشأ عند كثير منهم حب المجازفة فيما وراء المعروف، حتى ليظن أن منهم من وصل إلى أمريكا قبل أن يكتشفها «كولومبس».

وهنا نتطلع في لهفة إلى وصف شعور ابن بطوطة حينما وصلت إليه آثار السابقين من الرّحالة وأخبارهم. بالطبع كان موقفه إيجابيًا، حيث أثار كل هذا عنده ملكة مشادة أقاصي البلاد، فبدأ بحج بيت الله الحرام؛

فكان زهرة ركب الحجاج متمتعًا بمركز الصدارة بينهم لما تمتع به من ثقافة دينية واسعة في الفقه وعلوم الشريعة. وكان المسلمون في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية يرحبون بإخوانهم الذاهبين إلى الأراضي المقدسة. وكانت الطرق بين البلاد الإسلامية آهلة بالركبان، بالإضافة إلى قوافل التجارة. وسافر ابن بطوطة إلى حيثما شاء مندمجًا في ركب تجاري أو مع قافلة حجاج، وتابع رحلاته حاملًا بين جوانحه شخصية خفيفة الظل حلوة الشمائل، متمتعًا بقوة البأس التي بها تذوب الصعاب في طريقه مهما بلغت.. وجال في البلاد ثم عاد إلى وطنه حاملًا أصدق الصور الفريدة عن الحالة الاجتماعية في بلاد العالم الإسلامي في عصره.. وبهذا عد ابن بطوطة أعظم رحالة عرفه الإسلام والعرب.. حاز قصب السبق في المغامرة والاعتزاز باتساع الإمبراطورية الإسلامية. وأصدق دليل على ذلك ما افتخر به شاعر إسلامي من الرواد:

ومـــن كـــان مـــن الأحـــرا ر يســـــلو ســــلوة الحــــر
ولا ســـــيما فـــي الغربـــة أودى أكثـــــــر العمـــــــر
وشـــــــاهدت أعاجيبًـــــــا وألوانًـــــا مــــن الـــــدهر
فطابـــت بـــالنوى نفـــس علـــى الإمســـاك والفطـــر
علـى أنـي مـن القـوم البهالـ ـــــيل بنـــــي العـــــز
فـــنحن النـــاس كـــل النـــاس فـــي البـــر وفـــي البحـــر
أخـــــذنا جزيـــــة الخلـــــق مـــن الصـــين إلـــى مصـــر
إلـــى طنجـــة بـــل فـــي كـــل أرض خلينـــــا تســـــرى
إذا ضــــاق بنــــا قطــــر نـــزل عنـــه إلـــى قطـــر

الباب الأول

عصره

عصره

عاصر ابن بطوطة منذ ولادته في طنجة أحداثًا جسامًا، فقد عاصر الفترة التي أعقبت وفاة ابن الأحمر في الأندلس والتي تحتل الزمن الموازي لفترة الجهاد والتناحر بين بني الأحمر وبين المرين. وكان هذا العهد مشحونًا بالقلاقل وعوامل الانتقاض. واشترك حاكم «مالقة» أبو سعيد فرج ابن إسماعيل في النزاع الدائم، وحرص أهل سبتة بالضفة الأخرى من البحر على الثورة.. ويتلو ذلك ثورة بالأندلس على يد نصر بن محمد الفقيه.. وهنا يتطلع سلطان المغرب إلى بسط سلطانه على الأندلس؛ فبعث إليها حملة بقيادة «تشافين بن يعقوب» فطردت بني الأحمر واستولت على الأندلس، وتيسر بعد ذلك لأبي سعيد أن يتغلب على «المريه»، و«بلس»، وغيرهما من قواعد الجنوب. وبلغ غرناطة في أوائل عام ٧١٢هـ.. وهكذا تسير الأحداث في مجراها التدريجي.. فيتوطد الأمر، ويسود الاستقرار، ويهزم المسلمون في وادي فرموته بعد ذلك في عام ٧١٦هـ، ثم يعتزم القشتاليون بعد نجاح غزوتهم نزول الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ليحولوا دون وصول الإمداد إلى المسلمين من عدوة المغرب.. وتستمر المعارك بعد ذلك بين نصارى أسبانيا ومسلمي الأندلس، ثم يستعيد المسلمون جبل طارق الثغر المنيع

بعد أن ظل أربعًا وعشرين عامًا في أيدي النصارى.. وتصل الحوادث السياسية أوجها بين النصارى والمسلمين، وتدور المراسلات بين ملك المغرب وملك مصر.ثم تسقط الجزيرة الخضراء في أيدي النصارى؛ فيتأسف سلطان مصر لذلك، ثم يصل ابن بطوطة في رحلته السياسية إلى الأندلس. وأشار إلى وقت وصوله قائلًا: «كان ذلك أثر موت طاغية الروم الفونس الحادي عشر ملك قشتالة عام١٣٥٠م».. وفي تلك الفترة كانت سياسة الاسترداد الأسباني للأندلس العربية في عفوانها.. أما أهداف مملكة قشتالة في القضاء على الحكم العربي في الأندلس وتوحيد أسبانيا فقد تحددت ووضعت موضع التنقيب بين العرب والأسبان.

وتوفى ابن بطوطة في فأس عام ٧٧٠هـ، وكان سلطان المغرب آنذاك أبي فارس عبد العزيز. وفيما يختص بالناحية الدبلوماسية فقد هدأت الحالة بين ملك قشتالة وملك المغرب، وفي عام٧٧١هـ تظهر المملكة الإسلامية بمظهر القوة الذي لم تعرفه منذ زمن بعيد.

اسمه ولقبه:

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي أبو عبد الله ابن بطوطة.. رحالة مؤرخ، ولد ونشأ في طنجة **Tanger** بالمغرب الأقصى في عام ٧٠٣هـ-١٣٠٤م. ولا أدري لماذا سمى ابن بطوطة.. حقًا إن الأسماء لا تعلل، إلا إنني أرى في هذا الاسم غرابة توهم الظن أنه لابد من شيء تنسب إليه هذه التسمية التي أشتهر بها ابن

بطوطة، ولكن لم تذكر المراجع التي أطلعت عليها تعليلًا لهذا الاسم الذي عرف به.. أما تسميته بالطنجي فنسبة إلى بلده التي ولد بها «طنجة»، ثم تربى وترعرع حتى استمصد عوده وبلغ شابًا في الثانية والعشرين من عمره.. وسمى باللواتي نسبة إلى «لواتة» على وزن بنجابة؛ وهي قبيلة توجد بالبربر في بلاد المغرب.

هذا ولكني أعجب من شيء آخر؛ هو أن المراجع ترتب اسمه بالضبط، فما ذكرناه الآن في كتاب الإعلام صفحة ٩٣٢ الجزء الثالث وجاء في المجلد الثالث صفحة ٤٨من الدرر الكامنة هكذا: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن يوسف اللواتي الكنجي أبو عبد الله بن بطوطة. وفي مهذب رحلته للأستاذين أحمد العوامري ومحمد جاد المولى يزيد: (ولقبه شمس الدين وكنيته أبو عبد الله).. ربما يعلل ذلك الاختلاف بأن البعض كان يختصر، وأن الآخر كان يقف على ما وصل إليه بالضبط.. هذا من حيث المراجع القديمة.. أما المراجع الحديثة فكانت في الغالب تقتصر على كلمة ابن بطوطة، أو محمد بن بطوطة مثل كتاب «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى» للدكتور زكي محمد حسن. و«الرحالة العرب» للدكتور نقولا زيادة، و« الرحلات » للدكتور شوقي ضيف، و«ابن بطوطة في العالم الإسلامي» للدكتور إبراهيم أحمد العدوي.. أما ما جاء في مقدمته ابن جزي كاتب السلطان أبي عنان الذي أملى عليه ابن بطوطة رحلته فهو: «أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه

الله ورضي عنه بمنه وكرمه آمين ».. ونراه هنا يختصر الاسم اختصارًا يختلف عما جاء في الدور الكامنة.. وتتميمًا للفائدة نذكر: أن إحدى الباحثات من المحدثين بالطبع في الرحلات والاستكشافات طبع هذا الكتاب بمطبعة الإعتماد بالقاهرة.. أما المؤلفة فاسمها «بنت بطوطة». ولا شك ف أن هذا الاسم ليس اسمها الحقيقي، ولكن لماذا أطلقت على نفسها هذا الأسم؟.. أعتقد أن عظمة رحالتنا وشهرته هي التي دفعت تلك الباحثة إلى إطلاق هذا الأسم على نفسها، وإلا فما تعليله إذا لم يكن هذا ما قصدته.

مسقط رأسه:

قال ابن جزي (أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب سنة٧٠٣هـ، ومسقط رأسه هي مدينة طنجة بالمغرب كما جاء في معجم البلدان: (وهي مدينة في الإقليم الرابع طولها من جهة المغرب ثمانون درجة، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف من جهة الجنوب –بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهي من البحر الأعظم وبلاد البربر– قال ابن حوقل: طنجة مدينة أزلية، آبارها ظاهرة، بناؤها بالحجارة، قائمة على البحر والمدينة العامرة الآن على ميل من البحر وليس لها سور، وهي على ظهر جبل وماؤها في قناة يجري إليهم من موضع لا يعرفون منبعه على الحقيقة وهي خصبة. وبين طنجة وسبتة مسيرة يوم واحد وقيل: إن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله وهي آخر حدود إفريقيا).

بين أسرته:

ولد رحالتنا الكبير من أبوين كريمين عزيزين عليه في مدينة طنجة، وشب ابن بطوطة بين أحضان أسرة عريقة في المجد، وكريم الأخلاق، وحسن الشيم. عرفت هذه الأسرة بالتفقه في الدين، ودراسة العلوم الشرعية؛ وذلك فضلًا عما اشتهرت به من تولي مناصب القضاء بين الناس، ذلك المنصب الذي تولاه بالوراثة رحالتنا العظيم ابن بطوطة في عدة بلاد من أنحاء المعمورة أثناء تجواله -وسوف نشير إلى ذلك المهد الديني حيث التفقه ودراسة العلوم الدينية- كما تعلم الأدب وفنون الشعر. وإذا عرفنا أن أسرة ابن بطوطة عرفت بالبساطة في العيش وعدم التكلف، تبين لنا أنها خلقت من ابن بطوطة رجلًا متواضعًا، وعالمًا فقيهًا، استطاع أن يكون محط أنظار الناس وموضع تقديرهم وإكبارهم.. كان مثلًا أعلى وخير قدوة لما تمتع به أبناء الأسر الدينية العليا في المجتمع الإسلامي من طموح ومقدرة على تحمل المشاق والارتحال في طلب العلم ومعرفة المجهول.

إذن لا بأس علينا الآن أن نقول: إن هذا الشيخ الذي عرف بابن بطوطة لم يكن نكرة وفي خير المجهول، ثم رفعته المقادير من السطح إلى القمة حيث كبار الرحالة والرواد؛ مما جعله أعظم رحالة عرفته العربية. وخير دليل على ذلك آثاره الخالدة التي لن تبلى على مر الزمان، والتي أضافت تراثًا ضخمًا إلى المكتبة العربية في الجغرافيا والتاريخ والاجتماع. وظل ابن بطوطة في نموه بين أسرته، تعده هذه الأم بحنانها،

ويضمه الأب بعطفه وحبه حتى تفتحت براعمه واستحصد عوده وتكشفت مواهبه؛ فشب عن طوق الفتيان وغدا رشيدًا في الثانية والعشرين من عمره.. وآثر حينذاك مغادرة بلاده؛ لا لقصد الرحلة، بل لهدف ديني محض: ألا وهو حج بيت الله الحرام الذي يعتبر السبب الأول في قيام الرحلات العربية من قبله.

ولم يكن في بال ابن بطوطة أن يفارق أسرته العزيزة عليه لمدة طويلة حتى أتاه داعي الخروج لقصد الحج، فخرج ملبيًا هذا النداء الخالص لوجه الله تعالى، كما أنه لم يكن قد نوى الترحال بعد.

وكان عزمه على الخروج للحج حدثًا هامًا في حياة أبو عبد الله، فما أن قطع الطريق للحج حتى نفض عن كاهله ثياب الدعة والاستقرار، وارتدى ثياب الرحلة والتجوال، مخلدًا نفسه بين رحالة الإسلام والعرب.

أخلاقه وصفاته:

إن أصدق دليل على سمو أخلاق الرجل ورفعته وحسن صفاته هو تلك النشأة الدينية التي تذكرني بالمثل القائل (من شب على شيء شاب عليه). فلقد ظل ابن بطوطة طوال حياته مثلًا أعلى لرجل الدين والفقه والقضاء، محبًا للقاء العلماء، منصفا للعدل حيث يبدو ذلك واضحًا من معالجته لكثير من اعوجاج بدا له أثناء رحلته.. فحرصه على التأقلم بالمجتمعات التي يمر بها وينزلها جعلته لا يرضى عن عيوب أي منها كأنه بمجتمه الذي نشأ به. مثلًا حينما سافر ابن بطوطة إلى جزائر (ذيبة المهل) «جزائر الملديف حاليًا»، وتولى بها منصب القضاء، حاول أن

يقضي على عادة نكراء تجافي تعاليم الدستور السماوي، وهي: أن نساء تلك الجزر كن لا يلبسن سوى (فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل). وهنا أبي عليه شعوره الديني وقوة إيمانه وإحساسه العميق بالعفة الإسلامية إلا أن يزيل تلك العادة، ولكنه لم يفلح لعدم طول إقامته في تلك الجزر؛ فالرحالة دائمًا لا يميل إلى المكوث في مكان ما.

ويستشف من رحلته ومن خلال كلامه هو عن نفسه أنه كان شديد التأثر، يقظ الوجدان، رقيق العاطفة، ذا ورع وتقوى، محبًا لوالديه وللصالحين من الناس. ولا أدل على ذلك من ذكره الكثير من كراماتهم وعاداتهم، وسوف نشير إلى ذلك في مكانه. وكان يذكر دائمًا أن ما متع به في حياته هو أنه حج أربع مرات، أما شدة تأثره فيمثل لها بقوله: وقد وصل إلى تونس، (فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيري، ولقاء أبي الطيب بن القاضي أبي عبد الله النفراوي؛ فأقبل بعضهم على بعض بالسؤال والسلام، ولم أسلم على أحد لعدم معرفتي بهم، فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة، واشتد بكائي فشعر بحالي بعض الحجاج، فأقبل عليّ بالسلام والإيناس).

أما حبه لوالديه فيكفينا دليلًا على ذلك تلك العبارة في مقدمة رحلته حيث أبان فيها أنه تركهما (فتحمل لبعدهما وصبر، كما لقي من الفراق نصبًا). أما تدينه فيبدو أيضًا في وضوح تام بين سطور مقدمة كتابه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) حيث يقول: (الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلًا فجاجًا.. فكانت

مهادًا للعباد، وأرساها بأعلام الراسيات والأطوار). وهذا دليل على نزعته الدينية الخالصة.

حجه:

كان الحج هو السبب الأول في قيام ابن بطوطة برحلاته الواسعة المدى والمترامية الأطراف.. وحينما بدأ ابن بطوطة رحلته وصمم على التجوال في أنحاء المعمورة، لم ينس الهدف الأول من خروجه من طنجة وهو الحج؛ لذا نراه يحج بيت الله الحرام أربع مرات:

الأولى: بعد تجواله بالقاهرة والفسطاط وعيذاب على البحر الأحمر، وجد طريق جدة معطلًا؛ فخاض صحراء سيناء حتى الشام. وبعد تجواله ببلاد الشام أخذ يعد نفسه للرحيل إلى الحجاز، وانضم آنذاك إلى ركب حجاج الشام المعروف بالركب الحجازي لخروجه إلى الأراضي المقدسة.. ووصل ابن بطوطة الأراضي المقدسة وحج حجته الأولى، وفي ذلك يحدثنا ابن بطوطة عن شعائر الحج وما قام به قائلًا: (وإذا كان في أول شهر ذي الحجة تضرب الطبول والدبابات في أوقات الصلوات، وبكرة وعشية إشعارًا بالموسم المبارك. ولا نزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات..فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة، فإذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود إلى منى، وأمراء مصر، والشام، والعراق، وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى، وتقع المفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع.. فإذا كان اليوم التاسع وحلو من

منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة.. وعرفات بسيط، عرفات جبل الرحمة، وفيه الموقف، وفي أسفل هذا الجبل صهاريج وجباب للماء، وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الأمام المالكي بيده، ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال؛ فيا له من موقف كريم ومشهد عظيم، إثر جو النفوس حسن عقباه). وكانت حجة ابن بطوطة الأولى في سنة ٧٢٦هـ.

الثانية:

بعد ذلك سافر العراق فذهب إلى: واسط، والبصرة، وألمَّ ببعض مدن الموصل حيث عزم على أداء فريضة الحج الثانية. وظل في جولته المتوجهة إلى الحجاز شهرين عاد بعدها إلى بغداد، وسار في ركب الحج العراقي. وفي تلك الأثناء أصابه إسهال عانى منه كثيرًا أثناء الرحلة حيث وصف حالته قائلا: (كانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم، والأمير يتفقد حالي ويوصي بي، ولم أزل مريضًا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى). ووصل مكة في عام ٧٢٨هـ وفي نفس العام حج حجته.

الثالثة:

وفيها يختلف الباحثون: فقد ذهب الدكتور إبراهيم أحمد العدوي في كتابه «ابن بطوطة في العالم الإسلامي»: أنه بعد حجته الثانية ظل يعمل فيه عمله، وضعف فلم يستطع مغادرة مكة؛ فأقام بها سنة كاملة قضاها في درس العلم حيث نزل في المدرسة المظفرية. وفي نهاية العام حج للمرة الثالثة عام ٧٢٩هـ، ويقول بعد ذلك إنه أن استرد نشاطه

وحيويته تجدد عنده الشوق للارتحال وإشباع الرغبة في التجوال؛ فقام متوجهًا لزيارة أقوام من المسلمين على ساحل أفريقيا الشرقي، وعزم على الذهاب إلى هذه البلاد مارًا باليمن. هنا نرى أن ذهابه لساحل أفريقيا الشرقي عن طريق مروره باليمن بعد حجته الثالثة.. أما عند الدكتور شوقي ضيف في كتابه: (الرحلات) فالأمر على العكس، حيث ذهب إلى أنه أقام بمكة مدة ثم ركب البحر لليمن وتركها لأفريقيا الشرقية، وعاد لبلاد العرب حتى الخليج الفارسي، وزار ظفار، فعمان، فالبحرين، فمكة، وحج حجته الثالثة. أما رأيي أنا في هذا الخلاف فمؤيد لرأي الدكتور إبراهيم العدوي لأن هذا يوافق ما جاء في رحلة ابن بطوطة، وليس هناك أصدق من قول طبَّقه صاحبه بالعمل.

الرابعة:

وهنا أيضًا نؤيد رأي الدكتور العدوي في أنه بعد أن زار ظفار، فعمان، فالبحرين، ووصل مكة وحج حجته الرابعة سنة ٧٣٢هـ؛ وهذا أيضًا موافق للرحلة تمامًا، وبهذا لا نؤيد ما جاء به الدكتور شوقي ضيف في كتابه الرحلات حيث قال: حينما غادر ابن بطوطة الصين ذهب في كتابه إلى سومطرة، فنزل ظفار وأتجه لبلاد العجم، ثم تركها إلى ما بين النهرين وبلاد الشام، ونزل مصر ثم رحل إلى عيذاب، ومنها إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج للمرة الرابعة. ولا شك أن هذا خطأ لأن تاريخ حجته الرابعة كان سنة ٧٣٢هـ مع أن بدء توجهه إلى الصين كان في عام٧٤٣هـ، ووصل الشام عام ٧٤٩هـ. ولم يعرج على الأراضي

الحجازية حتى يطرق إلى الظن أنه حج، أو على الأقل زار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي خلال الأيام التي حج فيها ابن بطوطة وأقامها بالأراضي المقدسة لم يكن يضيع وقته هباء، لا سيما وأن مدينة الرسول تحفل بالكثير من الذكريات والآثار الإسلامية، ثم يزور أيضًا المسجد الشريف ويلتقي بالمشرفين عليه.. وقد حدثنا ابن بطوطة كثيرًا عن شعائر الحج، وعن عطف الملك الناصر سلطان مصر على الأراضي المقدسة، كما أنه لم يغفل الوصف والإشادة بالحياة الاجتماعية في مكة وسط اندماجه في الحديث عن الأماكن المقدسة.

الإرهاص برحلاته الواسعة:

وحتى لا نغمط الرجل حقه، نلفت النظر إلى تلك الحكاية التي يعدها بعض الباحثين إرهاصًا برحلات ابن بطوطة الواسعة. فقد خرج من طنجة في عام ٧٢٥هـ وظل في طريقه مارًا بتونس والجزائر حتى وصل مصر ونزل بثغرها المحبوب «الإسكندرية»، وقصد بعد ذلك مدينة «القاهرة»؛ لكنه لم يذهب إليها مباشرة بل طوف ببعض بلاد الوجه البحري كدمياط وزار بها زوايا الصالحين. وكان ممن زارهم ببلدة «فوه» بالقرب من رشيد رجل صالح يسمى أبا عبد الله المرشدي.. وهنا يمكث ابن بطوطة عند هذا الشيخ الصالح ويبيت على سطح زاويته.. ويرى ابن بطوطة في منامه أن طائرًا عظيمًا يطيره في سمت القبلة، ثم يشرق، ثم يذهب جنوبًا، ثم يبعد ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركه

بها.. وسأل ابن بطوطة الشيخ عن تفسير حلمه فقال له: سوف تحج وتجول في بلاد اليمن، والعراق، والترك، والهند، وتبقى بها مدة طويلة.. وفعلًا تحقق تفسير هذا الحلم وحج الرجل أربع مرات وطاف ببلاد الهند، والسند، واليمن، والعراق، والترك.

الحوافز التي دفعته إلى الرحلة: ما من معلول إلا وله علة، ولا مسبب إلا سبب. وبالإطلاع على رحلة ابن بطوطة وقراءة أخباره ومقابلاته لمختلف الشخصيات نرى أن هناك سببين دفعا بابن بطوطة إلى رحلته تلك:

الأول: في غرة جمادي الأولى عام ٧٢٥هـ يصل الركب الذي يقل ابن بطوطة إلى الإسكندرية ليلتقي الوحي من نيل مصر الخالدة ومن شواطئه الجميلة. الوحي بالقيام برحلة عظيمة رفعته إلى مصاف الخالدين وسطرت اسمه بين عظماء الرحالة من العرب. ففي الإسكندرية يلتقي ابن بطوطة بعالم يدعى «برهان الدين» وينزل في ضيافته ثلاثة أيام.. وكان لهذا العالم الأثر الفعال في خلق اللواتي الطنجي خلقًا آخر، فقد دار الحديث بينهما –وله شجون– ويستشف عالم الإسكندرية من أحاديث شمس الدين رحالتنا أنه أمام شخص محب للتجوال في الآفاق، وأن روحه وثَّابة تعشق المغامرة وارتياد الأصقاع، ويسأل العالم: أراك تحب السياحة والجولان – البلاد.. فأجاب أبو عبد الله بنعم. وهنا يشجعه عالم الإسكندرية على الرحلة قائلًا: لابد لك إن شاء الله من زيارة الهند ومقابلة أخي فريد الدين بها، وكذلك النزول بأرض الصين والالتقاء بأخي

برهان الدين هناك، فإذا بلغت إلى هذه البلاد فأقرئ أخوتي السلام. ومن هنا حدثت ابن بطوطة نفسه بالتوغل في مثل هذه البلاد النائية.. فكان لحديث العالم المصري وقع على نفس ابن بطوطة ودافع لغرس غريزة حب الأسفار في قلب رجل استطاع أن يثبت أنه بحق أعظم رحالة عرفه العرب في تاريخهم الوسيط.

الثاني: وكانت نبوءات الوالي الصالح أبي عبد الله المرشدي يمنيه مرشد قبالة «فوة» دافعًا من الدوافع التي شجعت ابن بطوطة على الرحلة، فلقد نمت عنده ملكة الارتحال وزيارة أقاصر البلاد. وسمع وهو بالإسكندرية عن هذا الشيخ الصالح أبي عبد الله المرشدي، فرحل لزيارته وبات عنده ليلة، فرأى رؤية وفسرها له الشيخ بأنه سوف يحج ويجول في بلاد كثيرة على نحو ما أوضحناه تحت عنوان «الإرهاص برحلاته الواسعة».

من هنا نستنتج أن ابن بطوطة لم يكن مبعوثًا رسميا من أحد السلاطين أو الملوك، ولا كان ممن خرجوا من بلادهم رغبة في التجارة وجمع المال.. ولكنه خرج بقصد الحج وشجعه على الرحلة تحميس برهان الدين له، ونبوءات أبي عبد الله المرشدي.

ابن بطوطة قاضيًا:

الرجل الذي استطاع أن يثبت وجوده في حقل الفقه والتدين، استطاع أيضًا أن يثبت وجوده في حقل القضاء.. فقد علمنا من أخلاق ابن بطوطة وصفاته أنه كان رجلًا متدينًا فقيهًا؛ ولذا كان في إشعاره موضع

تقدير واحترام، فنظر إليه القوم كرائد ديني.. لهذا نراه تولى منصب القضاء ثلاث مرات في رحلاته:

ولايته الأولى:

خرج ابن بطوطة من مسقط رأسه طنجة في عام ٧٢٥هـ – ١٤٢٤م. وكان إذ ذاك في الثانية والعشرين من عمره، وبدأ الركب يأخذ طريقه إلى مصر، وكان شمس الدين ابن بطوطة في صحبة قافلة من قوافل الحجاج؛ وهنا يكتشف القوم ابن بطوطة ويقع محط أنظارهم ويعرفون فقهه وتدينه ومكانته السامية، وأنه من بيئة هي الأخرى تُعرف وتشتهر بالفقه والقضاء. واكتملت لدى القوم عوامل ترشيحه للقضاء فنصّبوه قاضيًا عليهم، فزالت عنه الوحشة وأحس للمرة الأولى في حياته المليئة بالأحداث العظيمة والآثار القيمة بأخوة الروح الإسلامية وصفاء القلوب بين قوم خرجوا في سبيل الله وللجهاد الأكبر.. ألا وهو جهاد النفس.. وتعتبر هذه ولايته الأولى.

ولايته الثانية:

ومن أفغانستان يمم ابن بطوطة وجهه شطر الهند سنة ٧٤٣هـ – ١٣٣٣م.. ونزلها ورأى فيها من الأعاجيب ما تندهش له النفوس، ولقي حظوة عند سلطانها محمد شاه؛ فولاه قضاء دهلي (دلهي).. أما حكاية توليه القضاء بها فكالآتي: بعد خروج ابن بطوطة من حضرة السلطان جاءه مندوب من قبله وذلك ليأخذ من ابن بطوطة اختياره لنوع العمل الذي يرغب تولّيه، وكان مع أبو عبد الله بقية المستقبلين للسلطان

المنتظرين لوفده.. وقال مبعوث السلطان: «يقول لكم السلطان: من كان منكم يصلح للوزارة، أو الكتابة، أو الإمارة، أو القضاء، أو التدريس، أو المشيخة أعطيته ذلك». فسكت الجميع لانتظارهم العطاء. وخاطب المندوب ابن بطوطة لاستفهامه عن نوع عمله.. فرد قائلاً: «أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي.»، ويتولى ابن بطوطة قضاء دهلي ثماني سنوات. ويحكي أنه بعد أن قال قولته السابقة وقال عند سلطان الهند آنذاك: «أما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي»، قال له كبير الأمناء: «قد جعلك السلطان قاضي دار الملك في دهلي، وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينارًا في السنة»، وأخذ كبير الأمناء بيد ابن بطوطة وقدمه للسلطان الذي قال له: «لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال.. هو من أكبر الأشغال عندنا».

ولايته الثالثة:

ولما كان ابن بطوطة على شاطئ الثغور الهندية بالهند التي بعث به إليها سلطان الهند، هبت عاصفة أغرقت السفينة.. وعاد الركب إلى الهند، أما هو فلم يعد إلى السلطان بعد نجاته من الغرق، بل أخذ يتنقل في جزائر ذيبة المهل (الملديف) وتولى بها القضاء عامًا وبعض عام، وذلك بعد أن عرض عليه أحد وزرائها (ويدعى سلمان)، التزوج بامرأة جميلة من نساء القصر، وفعلًا تزوجها، وكان السبب في توليه القضاء هو رغبة السلطان من الاستفادة من علم ابن بطوطة وتفقهه في الدين، ولهذا الأمر قصة: وهي أن قاضي تلك الجزر أخذ العشر من قيمة التركات التي

يوزع أنصبائها على أصحابها، فأبدى ابن بطوطة اعتراضًا على تصرفات القاضي، وأوضح له أن الشرع لا يبيح له إلا أخذ قدر معلوم يكون بالاتفاق مع الورثة نظير تأدية مهمة التوزيع.. ومن هنا كان ابن بطوطة موضع حفاوة الوزراء وتقدير السلطان، فعزلت السلطات هذا القاضي وعينت ابن بطوطة مكانه..

وتطلع شعب تلك الجزر إلى ابن بطوطة بعين الإعجاب والتقدير.. ومن هنا يبدأ ابن بطوطة مرحلة جديدة في حياته وهي الاشتراك في سائر المظاهر الاجتماعية للحياة بهذه الجزر، ويعمل على إزالة ما بها من شوائب.. وفي ذلك يقول: «أول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في دار المطلقين. وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره، فحُسمت علة ذلك، وأتى إلى بخمسة وعشرين رجلًا ممن فعل ذلك، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق، وأخرجت النساء عنهم. ثم شددت في إقامة الصلوات، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة.. فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على مهام بسبيله.. وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك.. وجهدت أن أكسبوا النساء فلم أقدر على ذلك».

هذا طرف من تعاليم ابن بطوطة حينما تولى القضاء بجزائر الملديف، ولا شك أنها في قوتها توافق الشرع وتدل على الروح الإسلامية القوية لدى شمس الدين.. وخلاف ما مر يقر ابن بطوطة

الحسن النبيل من الأعمال ومن التي أقرها وشاهدها ووقعت موقع الرضا في نفسه.. الاحتفال بالأعياد. ما زال ابن بطوطة في عمله هذا حتى بلغ الذروة ووازى النجم مما سبب العداوة ضده عند الكثير وأثار كراهية كثير من الناس له، وآنذاك انبرى له جماعة من حساده ومعانديه، وأخذت عوامل الدس والمؤامرات تعمل عملها لإفساد ما بينه وبين السلطان الرئيسي، فوقعت الوحشة والفرقة بين الرحالة (اللواتي) وبين أحد الوزراء المدعو «عبد الله بن محمد الحضرمي»، هذا أحد الأسباب التي أدت إلى استقالة ابن بطوطة من منصب القضاء.. أما الثاني فهو شدة ابن بطوطة في إصداره أحكامًا قضائية، وقسوته في تطبيقها؛ وكان هذا عاملًا قويًا في خلق الصراع السافر بينه وبين الوزير الحضرمي. وتابع ابن بطوطة الوزير وتلمس زلاته، وانتهز فرصة رجائه إطلاق سراج شاب ارتكب جريمة الزنا مع إحدى نساء القصر، فضاعف ابن بطوطة العقاب. واستشاط الوزير غضبًا وجمع الوزراء واستدعى ابن بطوطة؛ فجاء إلى المجلس ولم يقدِّم التحية وقال للحاضرين: «أشهدوا عليّ أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزي عنه».. وأعلن مغادرته للبلاد، وغادر البلاد بعد ثماني سنوات قضاها في عدن وحزم وتصميم، وأتجه بعد ذلك إلى رحلته التالية.. إلى جزيرة سيلان.

قصة زاوجه:

وتاقت نفس أبي عبد الله وهو في رحلته أن يبحث عن شريكة حياة له.. وألقى عصا التسيار وهو في طريقه بتونس، ثم رحل عنها إلى

طرابلس وتزوج بها.. ثم تنفذ الأقدار ما عزمت عليه ويقع الخلاف والشجار بين ابن بطوطة وصهره، وتكون النتيجة أن يفترق ابن بطوطة وزوجته.. ولكنه تزود بامرأة أخرى كانت بنتًا لبعض طلبة فارس، وبني عليها بقصر الزعافية، وكانت الوليمة الكبرى بمناسبة بنائه عليها، وقضى الركب يومًا كاملا في ابتهاج وفرح، وودع الرحالة زوجته ليتابع الركب المتوجه للحجاز.

أما في جزر ذيبة المهل، فكانت قصة زواج ابن بطوطة بها طرفًا مهمًا من الأحداث التي تُصور الحياة الاجتماعية بهذه الجزر.. فمنذ ألقى عصا التسيار بهذه الجزر وهو محط أنظار الجميع وموضع حفاوة العلماء والوزراء؛ ومنهم الوزير سليمان (أحد وزراء هذه الجزر) ومن نواحي إكرام الوزير له منحه بستانًا وإهداؤه جارية تدعى «قل ستان» أي زهرة البستان، وأعجب ابن بطوطة بالجارية أيما إعجاب لأنها تجيد اللسان الفارسي، وهو الآخر يجيده ويفضل الحديث به مع مواطني تلك الجزر.

ثم توالت الهدايا على ابن بطوطة بعد ذلك، وسرعان ما دب إلى خاطره أن الوزير يبغى من وراء ذلك شيئًا، فقد صمم الوزير على أن يزوج ابن بطوطة من ابنته، وبعث إليه رسولا يخبره بما يريده الوزير.. وكان الإباء أسرع شيء إلى نفس ابن بطوطة وأظهر للرسول إعراضه عن هذا الزواج بعد عرضه عليه.. ووجد القلق والاضطراب والتشاؤم طريقًا سهلًا ومعبدا إلى قلب ابن بطوطة، وأصابته الحمى؛ حيث تَطيَّر من هذا الأمر

وذلك لعلمه أن رجلًا تقدم للزواج من تلك الفتاة –ابنة الوزير– وذهب إلى الرفيق الأعلى قبل ليلة الزفاف. وهنا يعزم ابن بطوطة على الرحيل ويبعث إليه الوزير يطلب الهدايا التي أرسلها إليه، وردها حالًا بالإضافة إلى المال الذي حصل عليه شمس الدين من الوزير، ويقوم الوزير بحيلة أخرى فيرسل رسولًا في السر يحض ابن بطوطة على الإقامة وعدم مغادرة الجزيرة.

وأدرك ابن بطوطة أنه لا مناص من الإقامة بها؛ لذا فضّل الإقامة بها عن طيب خاطر حتى لا يضطره الوزير إلى الإقامة ويكرهه على أمر لا يريده.. ثم يقبل الزواج من ابنة الوزير سليمان على مضض، وأخذ الوزير استعداداته اللازمة للاحتفال بعقد القران، وأقام سرادقًا ضخمًا على قدر كبير من الرونق والجمال في يوم العقد.. كل هذا وابن بطوطة في حومة الأفكار تذهب به هنا وتروح هناك، وهو مستسلم للأمر الواقع، ثم يحدث من غريب الأمور بعد اجتماع سائر المدعوين ما ينقذ ابن بطوطة من الورطة التي ألمّت به، حيث لم يحضر الوزير إلى السرادق الذي أعده وأسرع القلق إلى الحاضرين بعد طول الانتظار، فيهمس أحد خاصة الوزير في أذن ابن بطوطة مخبرًا إياه أن ابنة الوزير رفضت الزواج منه، وأن الوزير يعرض عليه التزوج بامرأة جميلة من نساء القصر؛ فيطير ابن بطوطة فرحًا ويقبل العرض، لا سيما وأنه كان كارهًا بدوره الزواج من ابنة الوزير. ودفع الوزير الصداق وتم عقد القران، وقال ابن بطوطة في هذه الزيجة المفاجئة: «ورفعت –أي المرأة قبل الزواج بها– إليّ بعد أيام،

فكانت من خيار النساء، وبلغ من حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبني وتبخر أثوابي وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير».

وحينما دب الخلاف بينه وبين أحد وزراء هذه الجزر، صمم ابن بطوطة على متابعة الارتحال والتجوال؛ فطلق نساءه جميعًا كما طلق هذه الجزر واتجه إلى جزيرة سيلان.

ابن بطوطة سفيرًا سياسيًا:

إن الرحالة الكبير الذي استطاع أن يثبت وجوده بجدارة في ميدان الرحلة والاكتشاف والقضاء، استطاع أيضًا أن يثبت وجوده في ميدان آخر؛ وهو ميدان السياسة، ويكون محط أنظار الأمراء والسلاطين في بلاد غير بلاده فيبعثونه عنهم سفيرًا إلى أقطار أخرى.. وهذا ولا شك يعطينا صورة أوضح لمكانة الرجل ومدى قوته الشخصية، وقد بُعث ابن بطوطة سفيرًا سياسيًا إلى الصين مرة، وإلى الأندلس أخرى. وبعثته إلى الصين ثابتة لا خلاف فيها، أما بعثته إلى الأندلس فمحل الخلاف.

بعثته الأولى: لقد أقام ابن بطوطة بالهند مدة وكان عند سلطانها، وكثر ماله وعلت مكانته، وبعد فترة زمنية مَلَّ حياة النعيم، وترك خدمة السلطان، ووزع جميع ما يملك على الفقراء والمعوزين، وأعطى ثيابه لأحد الفقراء، وارتدى ثيابه ونزل عند أحد الشيوخ خمسة شهور. وكان السلطان غائبا في تلك الأثناء، وعند عودته استدعاه السلطان للخدمة، فرفض ابن بطوطة واستأذنه في السفر إلى الحج؛ فتردد السلطان ثم أذن له فنزل -على عادته- في زاوية لأحد الشيوخ وأقام فيها يصلي ويقرأ

القرآن، وبعد أربعين يومًا طلبه سلطان الهند ليوجه عند رسولًا إلى ملك الصين.. وقبل ابن بطوطة البعثة مع علمه بخطورة الطريق الذاهب إلى بلاد الصين..

وسبب تلك البعثة السياسية: أن ملك الصين بعث إلى السلطان بهدية وطلب منه أن يأذن ببناء بيت الأصنام في بلاد الهند.. فكتب إليه السلطان بعد وصول الهدية أن هذا لا يجوز في بلاد الإسلام.. ورد السلطان لملك الصين هدية أحسن مما بعثها: خيل، ومماليك، وشمعدانات فضية وذهبية.. إلخ. ويبدأ ابن بطوطة بعثته إلى الصين.. وهنا تبدو الروح الإسلامية الحقة لدى الرّحال المسلم ابن بطوطة، فقد وصل هو وأصحابه إلى مدينة كان القتال يدور فيها بين المسلمين والكفار، وتحدُث اشتباكات عدة ينجو ابن بطوطة من شررها المتطاير.

وانتهت متاعب سفره في هذا الطريق بوصوله «جزيرة جاوة» حيث شاهد منها مفاتنها الطبيعية ومنتجاتها النباتية ما أنساه الصعاب التي كانت تعرقل طريق سفره لبلاد العالم الإسلامي في الشرق، وظل سائرًا في طريقه مكررًا ماروى عن الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– : «أطلبوا العلم ولو في الصين»، كان ثابت الجنان لم يراوده خوف ولا فزع كلما دنت السفينة من شواطئ الصين. ووصل ابن بطوطة بلاد الصين وأدى مهمته، ويعود ابن بطوطة بعد ذلك إلى الهند بعد أن اضطر إلى مغادرة الصين لانتشار الفتن والقلاقل بها وفي عاصمتها بالذات؛ حيث خرج أقرباء السلطان عن الطاعة وتطلعوا إلى الملك، وانتهت

الفتن بقتل السلطان أو «القان. ثم يغادر ابن بطوطة بعد ذلك بلاد الشرق الأقصى مسرعًا قاصدًا العودة إلى مهده الحبيب، إلى بلاد المغرب متخذًا الشام ومصر طريقًا إلى بلده.

بعثته الثانية:

وهذه البعثة محل خلاف، فهل كان ذهابه إلى الصين بقصد التجوال والرحلة، أم لمهمة سياسية أرسله إليها ملك المغرب؟. تتباين المراجع في الإجابة عن هذا السؤال، فقد ذهب الدكتور إبراهيم العدوي في كتابه «ابن بطوطة في العالم الإسلامي» ص ١٣٥إلى أن ابن بطوطة حينما غادر الصين يمم شطر فأس حيث بلاط أبي عنان، ثم ترك البلاط بعد ذلك لزيارة قبر والدته بطنجة. وهناك تجددت عنده نوازع الشوق للرحلة، فقصد بلاد الأندلس هذه المرة لمشاهدة هذه الرقعة من دار الإسلام، ثم يقول: إنه لم يقم بهذه البلاد كثيرًا حيث كانت البلاد تعاني أخطر مرحلة في حياتهم وهي انسحابهم أمام المسيحيين من أهل الأندلس، ومن ثم عاد ابن بطوطة في حزن عميق إلى طنجة تاركًا وراءه هذا القطر العظيم من دار الإسلام.

وفي عدد «المجلة» ٤٢من عام ١٩٦٠ يتحدث الدكتور (جمال مرسي بدر) عن رحلة ابن بطوطة إلى الأندلس قائلًا: إن المُطالِع لرحلة (اللواتي الطنجي) للأندلس يتساءل: لماذا تأخرت هذه الرحلة وكانت أولى أن يقوم بها رحالتنا المغربي في أول عهده بالأسفار؟

وسؤال آخر أهم من هذا هو: ما هو الباعث على تلك الرحلة في

ذلك الوقت، وماذا كان غرض ابن بطوطة منها؟ يقول ابن بطوطة نفسه في كتابه (تحفة النظار): «أردت أن يكون لي حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة».. غير أن الدكتور لا يوافق على كلامه هذا قائلًا: إننا لا نصدق أن الباعث على هذه الرحلة هو رغبة ابن بطوطة في الاشتراك شخصيًا في الجهاد ضد أعداء العرب في الأندلس، أو المرابطة في ثغورها وحصونها. ففي تلك الأثناء كان الرجل في الخمسين من عمره، وناهيك بهذا السن مضادًا لكلام ابن بطوطة.. كما أن مسلكه أثناء رحلته لا يتفق وعزم ابن بطوطة على أعمال سوف ينفذها.. كما أنه لم يقم في جبل طارق إلا قليلًا، تتعدى المرابطة فيه حدود التمني حيث يقول: «وودت لو أني ممن رابط فيه إلى نهاية العمر»، وكان جبل طارق أخطر معقل بالنسبة للعرب في الأندلس.. كما أن حصن (سهيل) المهم لم يبت فيه ابن بطوطة إلا مضطرًا خشية القراصنة الأسبان حتى لا يوقعوا به..

هذه أدلة استنتاجية من أخبار ابن بطوطة تبين: أن رحلة ابن بطوطة إلى الأندلس إنما كانت سفارة سياسية من ملك المغرب إلى ملك غرناطة بقصد توحيد الجهود العربية ضد الأسبان، والوقوف في طريقهم دفاعًا عن كيان العروبة في أسبانيا.. وفشلت هذه المحاولة، بل لم يتمكن السفير ابن بطوطة من مقابلة ملك غرناطة لمرض ألمَّ به يصفه الدكتور بأنه نوع من المرض السياسي.. أما أدلة الدكتور على صحة كلامه فهي:

١- لم يسافر ابن بطوطة منفردًا.. إنما صحبه من العرب كاتب

ملك المغرب ابن جزي الكلبي.. ومع العلم أن هذا لم يحدث في أي رحلة أخرى قام بها الشيخ أبو عبد الله اللواتي الطنجي.. بهذا كان الاثنان معًا بمثابة وفد دبلوماسي مع بلاط فأس؛ أي من قِبَل ملك المغرب إلى بلاط ملك غرناطة.. وعن طريق حصر الرحلة كلها أو ركب ابن بطوطة إلى مختلف البلدان، نجد أن ابن جزي لم يصحبه في أي مكان، وهذا يعضد ما ذهب إليه الدكتور.

٢- كما أن هذه السفارة السياسية لم تكن الأولى من نوعها في حياة ابن بطوطة، فله سوابق في مثل هذا العمل، وكان هذا موضوع حديثنا عن بعثته الأولى بين ملك الهند وملك الصين، وإن كانت بعثته إلى الأندلس تعد سرية إلى حد كبير.

٣- كما أن أحوال ملوك المغرب تؤكد هذا، فقد كان لملك المغرب أبي عنان ومن قبله لسلفه أبي الحسن اهتمام بالغ بالشئون الأندلسية، وقام كل منهما بأعمال هامة، وشيد منشآت كثيرة في جبل طارق. ولا شك أن هذا كله إرهاص بنية مبيّتة وتمهيد لعمل عسكري كبير في الأندلس ضد الأسبان، ولنسمع ابن جزي كاتب الملك وأمين سره والمطلع على دخيلة أمره يتحدث عن هذا الشأن: «أظهر مولانا -أيده الله- من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن في حساب أهلها، وبعث إلى جبل الفتح ولده المبارك -الأسعد الأرشد- أبا بكر المدعو من السمات السلطانية بالسعيد أسعده الله تعالى.. وبعث منه أنجاد الفرسان، ووجوه القبائل، وكفاية الرجال. وأدرَّ عليهم الأرزاق، ووسع لهم الإقطاع، وحرر بلادهم من المغارم، وبذل لهم

جزيل الإحسان. وبلغ من اهتمامه بأمور الخيل: أن أمر –أيده الله– ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور؛ فمثل فيه أشكال أسواره، وأبراجه، وحصنه، وأبوابه، ودور صنعته ومساجده، ومخازن عدده، وصورة الجبل وما أتصل به من التجربة الحمراء. فصنع ذلك بالمنشور السعيد فكان شكلًا عجيبًا أتقنه الصناع إتقانًا يعرف قدره كل من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال.. وما ذلك إلا لتشوقه –أيده الله– إلى استطلاع أحواله بتحصينه وإعداده، والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية «أسبانيا» على يديه، ويحقق ما يأمله في فتح بلاد الكفار».

وفي هذه العبارة الأخيرة تصريح واضح بما كان قد انعقد عليه عزم أبي عنان من قتل الأسبان ومحاولة إعادة فتح أسبانيا. أما دليلنا القوي على ذلك فهو صدور تلك العبارة من مكاتب الملك نفسه، وهذا ما يجعلنا لا نشك في أنها تصور ما كان يعتزمه الملك وما بيّنه في قلبه.

٤– إن لموت ملك قشتالة الحادي عشر بالوباء بعد طول حصاره لجبل طارق كان من نتائجه رفع الحصار عن جبل طارق. فكان ذلك من عوامل تشجيع الملك المغربي على اغتنام الفرصة وخلو الجو من العدو الذي انتصر على جيوش العرب المتحدة في «ريو سالادو» قبل هذا الموعد بعشر سنوات. وكذلك فرصة انشغال الأسبان بفترة «انتقال عظيم» بين ملك عظيم مات وملك جديد لم يعرف بعد من أمره شيء. كل هذه الحوادث والظروف من شأنها اعتبار ذلك الوقت أنسب الأزمنة للقيام بعمليات عسكرية مشتركة ضد الأسبان.

ويختم الدكتور جمال مرسي بدر كلامه بأنه لو صح هذا الفرض ورجحت أدلته لكانت رحلة ابن بطوطة الأندلسية آخر محاولة لجمع شمل العرب في الأندلس في عمل واحد ضد الإسبان، ولكنها فشلت للأسف ولم يكتب لها التوفيق؛ فكان آخر عهد بالتضامن العربي في المغرب هو يوم٣٠ أكتوبر ١٣٤٠م، ومنذ ذلك اليوم تركت الأندلس وشأنها لتلاقي مصيرها المحتوم إلى أن كان يوم سقوط غرناطة وخروج العرب نهائيًا من أسبانيا سنة ١٤٩٢م.

أما رأيي أنا في بعثة ابن بطوطة إلى الأندلس فأميل فيه إلى ترجيح ما ذهب إليه الدكتور جمال مرسي بدر واسمها "البعث السرية"، وإن ابن بطوطة فعلًا توجه إلى الأندلس من جهة المغرب سفيرًا عن ملكها، كما أرجح أن ابن بطوطة لو كانت رحلته إلى الأندلس غير سياسية لوصف الأندلس وصفًا جميلًا وأحاط بكل معالمها.. أما وأنه قد أهمل آثارًا خالدة كانت تستحق منه الوصف، فلا غزو علينا أن نقول إن رحلته إلى الأندلس لم تكن بقصد الاكتشاف والتجوّل.. مثلًا قد فاته وصف قصور الحوراء التي لا تزال إلى اليوم تسترعي الأنظار وتجتذب السائحين من أقاصِ البلدان، ولا نظن أن هذا الإغفال كان بدافع الإيجاز والاختصار.. إذ إن رحالة دقيق الملاحظة قام من أجل الرحلة ووصف المشاهدات لا يمكن أن تفوته مثل هذه التحفة المعمارية.. من أجل هذا نقول: إن مهمته السياسية منعته من التجول كثيرًا؛ حيث إن التطلع للبحث في أمور السياسة يظل بعيدًا عن الجو الخارجي عنها.

ويشير الرحالة الطنجي الأشهر إلى حوادث سياسية في الأندلس مما يعضد رأينا من ذلك مثلًا.. ما كان يتصوره ملك قشتالة –بعد حصار جبل طارق– من أنه أضحى على وشك الاستيلاء على ما بقى من بلاد الأندلس، فأخذه الله من حيث لم يحتسب وأخفاه الوباء.

بهذا يكون ابن بطوطة قد مثّل شخصية السفير السياسي مرة من الهند إلى الصين، ومرة من المغرب إلى غرناطة.. ولا شك أن هذا يُلقي ضوءًا على عقلية الرجل الفذة ولباقته، ويكشف زاوية من زوايا حياته المليئة بالأحداث التي تستحق البحث والدراسة.

ابن بطوطة جغرافيًا:

يلاحظ ابن بطوطة من أحوال البلاد ما يلاحظه علماء الجغرافيا، ولكن على صورة تخالف أبحاث العلماء المحدثين، حيث لم تتوفر لديه الآلات الحديثة في ذلك الوقت. وحسبنا أن نقرأ كتابه كله فنجد أنه تعرض لوصف البلاد من ناحية المناخ.. مثلًا هذه المدينة حارة أو باردة، وفيها من الأنهار كذا وكذا.. والأخرى يزرع فيها من الحبوب: القمح، والذرة، والشعير.. وكان هذا عنده من صلب نظراته الفاحصة في أنحاء البلدان.. ولكنه لم يقدّم لنا إحصائيات شاملة ترسم أمام القارئ صورة جغرافيّة كاملة لبلد ما بالنسبة لأنه لم يدون رحلته وقتيًا، بل كان يحفظ المعلومات في ذهنه.. قال مثلًا عن مدينة صنعاء باليمن:

إن الأمطار تهطل بها صيفًا؛ حيث إن اليمن من أبناء حوض البحر الأبيض المتوسط التي تهطل أمطاره شتاءً.. وهذا ما لفت نظره قال:

إنما ينزل أيام القيظ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان. فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلّا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة، ومدينة صنعاء مفروشة كلها.. فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأرواها.

لهذا نثبت أن ابن بطوطة كان جغرافيًا إلى جانب كونه وصّافًا اجتماعيًا، وأنه سار بالبر كما خاض البحر.

أما نفي الدكتور نقولا زيادة هذا الجانب من حياة ابن بطوطة فليس له أساس من الصحة، فقد ذهب في كتابه «الرحالة العرب» ص ١٢٣في أول حديثه عن ابن بطوطة أنه لم يكن جغرافيًا؛ فهو لم يهتم بالأقطار إلا قليلًا، وحتى المدن لم يصفها إلا باعتبار واحد: هو باعتبار ما يسكنها من الناس، فقد كان القاطنون بالمدن وعاداتهم موضع اهتمام رحالتنا.. ويقول: بهذا هو يفيدنا في التاريخ والاجتماع أكثر مما يفيدنا في الجغرافيا.. وهنا تطل مناقضة الدكتور لنفسه من خلال كلامه.. فهو يذهب إلى أن إفادة ابن بطوطة لنا في التاريخ والاجتماع أكثر من إفادته لنا في الجغرافيا، ومعنى ذلك أنه أفادنا في الجغرافيا ولكن بنسبة أقل من التاريخ والاجتماع. فتناقض الدكتور أتى من أنه قطع أولًا بنفي كون ابن بطوطة جغرافيًا.. وفي نهاية كلامه أفاد أنه كان جغرافيًا ولكن بنسبة تقل عن التاريخ والاجتماع. أما حديثنا عن الجانب التاريخي والاجتماعي من حياته فموضعه الباب الثالث من البحث.

بين رحالة عصره:

بالرجوع إلى الوراء قليلًا حتى القرن السادس الهجري نلتقي برحالة آخر يماثل في أهميته ابن بطوطة، وكثيرًا ما عقد الباحثون مقارنات بينهما بالإطلاع على رحلة ابن جبير البادئة من الأندلس والتي مرت بالحجاز ومصر نرى وجوه التشابه بينهما في كثير من الأوصاف؛ ففي ذهاب ابن جبير إلى الحجاز يمر بالإسكندرية فيتحدث عن عجائبها والمنارة، ونجد مثل هذا بالضبط عند ابن بطوطة، وحينما يصل ابن جبير إلى الإسكندرية ويقضي فيها مدة، يفكر في الذهاب إلى القاهرة، فيمر بمدن الوجه البحري حتى يصل العاصمة فيطوف بمساجدها ويسترعي انتباهه مناظر الفقراء واليتامى وكيف يعطف عليهم.. وكل هذا أيضًا نلتقي به عند ابن بطوطة. وفي مكة يحدثنا عن أحوال أهلها وعن مناسك الحج وإقامة الشعائر الدينية هناك، ولا شك أننا أطلعنا على نظير هذا عند شمس الدين.. ولكن هناك فارقًا شكليًا وآخر موضوعيًا؛ أما الشكلي فنجده في الأسلوب، حيث يمتاز أسلوب ابن جبير عن أسلوب ابن بطوطة، وسوف نتبين ذلك في حديثنا عن أسلوب الرحلة. أما الموضوعي فيحوز فيه ابن بطوطة قصب السبق، حيث يمدنا بدقة الوصف والاستقصاء الواعي. هذا مع ملاحظة أن كلًا منهما جغرافي، وإذا ذهبنا إلى رحالة آخر معاصر لابن بطوطة كالبلوي مثلًا: وهو القاضي أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي الذي غادر الأندلس إلى القطار الحجازية ٧٣٦هـ نجده يلتقي مع ابن بطوطة في شيء ويختلف في آخر، يلتقي معه في البدء حيث خرج

البلوي بقصد الحج، وأقام بعض الوقت ببيت المقدس، ثم وصل الحجاز وعاد ودوّن أخبار رحلته في كتابه «تاج المعرفة في تحلية علماء المشرق». وتحدث في كتابه ووصف، لكنه يقلّ عن ابن بطوطة في الكثير؛ حيث إنه لم يصف عن حقيقة مؤكدة، فقد أخذ كثيرًا عن ابن جبير؛ وخاصة في وصف الإسكندرية والقاهرة ومكة. كما أنه لم يصل إلى الهند والصين وأفريقيا كما فعل رحالتنا الكبير، وهذا هو محل الخلاف الكبير بين ابن بطوطة ومعاصره البلوي؛ لهذا نجد البلوي لم يظفر من الباحثين المحدثين الذين كتبوا عن الرحالة إلا بسطور قليلة، بينما كتب الباحثون عن ابن بطوطة ما لا يحصى بعد.

أما إذا قارنّا ابن بطوطة بأحد رحالة العصر الحديث، يتكشف لنا قيمة الجهد الذي أضنى الشيخ. فمثلًا يتحدث الأستاذ محمد ثابت عن رحلاته في كتابه عن رحلته «رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها» بأنه قطع ثلاثة عشر عامًا في رحلته، وسار ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ كيلو مترًا. فمقارنة كل هذا مع توفر أحدث آلات النقل، إذا علمنا أن ابن بطوطة سار على قدمه وتعرض لخطر البحر قارناه منصفين.

مع مختلف الشخصيات:

ولابن بطوطة شغف كبير بلقاء العلماء والصالحين، كذلك كان يلتقي بالأمراء والوزراء في مختلف البلدان، وكان يطلب وِدَّه كبار الشخصيات في كل مكان، ويولونه أعلى المناصب لديهم لمَّا سعوا عن سمو روح الرجل ومدى اتساع عقليته في الفقه والدين، وعَشِق ابن بطوطة

الاجتماع بالعلماء والصالحين وزيارة زواياهم والتحدث كثيرًا عن كراماتهم، حتى لكان ذكرهم عنده هداية وتبرك. ففي الإسكندرية الْتقى –كما أشرنا سابقًا– بالعالم الشيخ برهان الدين الذي نزل في ضيافته ثلاث ليال وكان الحديث بينهما في شأن الرحلة حينما لمح الرجل في عيني ابن بطوطة رغبة في التجول وقال له: "أتحب السياحة؟ فأجاب بنعم. وما كان ببال ابن بطوطة آنذاك توغل في أقصر البلاد كالهند والصين..". ومن هنا شجعه الرجل على الرحلة وحمَّله السلام إلى أخويّه في الهند والصين. سمع وهو بالإسكندرية عن رجل صالح يدعى أبا عبد الله المرشدي بمنية مرشد قبالة (فوة)، فرحل إليه ولقي منه العطف والكرم وظل عنده ليلة رأى فيها رؤيا فسرها له الشيخ بأنه سوف يحج ويجول في بلاد كثيرة. رأى في دمشق بمسجد بني أمية العالم المتقشف المحافظ: تقي الدين بن تيمية وحضر مجلس علمه ووعظه يوم الجمعة، وكان من جملة ما ألقاه على الناس «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من درجات المنبر». وعارضه فقيه مالكي (ابن الزهراء) فأنكر ابن تيمية قوله في المعارضة.. وهنا يقوم العامة منهالين على الفقيه بالأيدي والنعال حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه غطاء من حرير، وأنكروا عليه ذلك وحملوه إلى قاضي الحنابلة الذي أمر بسجنه. وفي حاضرة اليمن (تعز) نزل ابن بطوطة ضيفًا على قاضي قضاتها.. (صفي الدين الطبري) وأقام عنده ثلاثة أيام، وكان لابن بطوطة عند هذا القاضي مكانة فائقة؛ حيث أشاد بعلمه الغزير. وفي اليوم الرابع من نزوله هذه المدينة اصطحبه القاضي لمقابلة السلطان.. في الهند ألتقى بأكبر رجالها

(بالسلطان)، وولاه منصب القضاء في دلهي، وظل موضع تقدير الشعب هناك مدة، ثم بعثه سفيرًا إلى الصين.. وكانت له قصة في ذهابه مع أحد وزراء الهند ويدعى (سليمان) في فأس بالمغرب، كانت له مكانة عليا عند ملكها أبي عنان؛ حيث خصص له كاتبًا ليكتب ما يمليه عليه من شأن رحلته هو (ابن جزي الكلبي)، وذهب معه أيضًا أثناء بعثته الأندلسية.. وإذا أردنا الحديث عن مقابلة الرجل لمختلف الشخصيات الكبيرة لطال بنا الحديث.. ولكن تكفي هذه الإشارة العاجلة في هذه الزاوية من حياة ابن بطوطة الخالدة.

وفاته:

وظل ابن بطوطة في تجواله بالسودان حتى وصل مدينة «تكدا».. وهناك جاءه أمر من سلطان فأس بالعودة، فخرج من تكدا في الخميس١١ من شعبان ٧٥٤هـ ووصل سجلماسة في ٧٥هـ في النصف من ذي القعدة، ومن هناك توجه لفأس ووصل في نفس العام إليها، وهناك أقام بجوار سلطانها وأملى رحلته على ابن جزي الكلبي وظل بفأس حتى توفى عام ٧٧٠هـ الموافق ١٣٦٨أو ١٣٦٩م تاركًا ما لا يفنى مدى الدهر.

الباب الثاني

الرحلة

رحلات ابن بطوطة

بدأ ابن بطوطة الرحلة عام ١٣٢٥، وانتهى منها عام ١٣٥٤م. وبتتبع رحلات الرجل نجد أنها تنقسم إلى ثلاث رحلات:

الأولى: وتبدأ عام ١٣٢٥م وتنتهي عام ١٣٤٩م وتعد أكبر الرحلات زمنًا حيث قضى فيها ابن بطوطة أربعة وعشرين سنة، فقد رحل من طنجة مسقط رأسه عام ١٣٢٥ قاصدًا الحج؛ فمر بمراكش، والجزائر، فتونس، وطرابلس، والغرب إلى أن أشرف على مصر ونزلها. ثم يمم شطر عيذاب على البحر مجتازا بلاد الصعيد ليجتاز البحر الأحمر.. وشاءت الأقدار ألا يجتازه لحرب كانت قائمة بين المماليك والبجاة. وهنا نراه يعود إلى الفسطاط ويرحل عنها إلى فلسطين، ولبنان، وسوريا، والحجاز فيحج حجته الأولى. ومن مكة سافر إلى بلاد العراق، والعجم، وبلاد الأناضول، ويعود إلى مكة ويحج الحجة الثانية ويقيم بها سنتين، ثم يغادرها لليمن، ثم يجتاز البحر إلى أفريقيا الشرقية ويعود منها مارًا بجنوبي جزيرة العرب حتى الخليج الفارسي مارًا بعمان، والبحرين، والأحساء، ثم يرجع إلى مكة ويحج الحجة الثالثة، ويخرج من مكة إلى بلاد الهند فيمر بخوارزم، وخراسان، وتركستان، وأفغانستان، وكابول،

والسند -وهنا يتولى القضاء بدلهي على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه- حينما أراد هذا السلطان أن يرسل وفدًا إلى ملك الصين، وخرج ابن بطوطة فيه وفي عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند والصين.. ومن ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة سنة ١٣٤٧م فزار بلاد العجم، والعراق، وسوريا، وفلسطين، ومنها إلى مكة حيث حج الحجة الرابعة. وبعد هذا قبل أن يعود إلى وطنه مر بمصر، وتونس، والجزائر، ومراكش فوصل فأس سنة ١٣٤٩م.

الثانية: لم تطل إقامة ابن بطوطة في «فأس» حيث أحس في نفسه نزوعًا للرحلة والتجوال، ومن هنا سافر إلى الأندلس مارًا بطنجة، وجبل طارق، وغرناطة، وتحدث حديثًا قليلًا عن بلاد الأندلس. وبعد ذلك يئوب إلى فأس وكانت رحلته الأندلسية من عام ١٣٤٩م حتى سنة ١٣٥٢م.

الثالثة: وتبدأ من عام ١٣٥٢م حتى عام ١٣٥٤م، وكانت هذه الرحلة إلى بلاد السودان بادئة بسجلماسة، ثم تفازا، ثم مالي، وزاغري كارسخو، وتمبكو، وهكار، ومن هناك رجع إلى فأس. وبعد هذه الجولات كلها استطاعت عقلية الرجل الفذة أن تملي كل ما عرفته على ابن جزي. ولنتصور مثلًا رجلًا في الثالثة والخمسين من عمره يستطع أن يملي كل ما علمه ويصف كل ما شاهد في تسع وعشرين سنة دون أن يكون قد دَوَّن شيئًا من قبل.. هذا فضلًا عن اتساع الآفاق التي مر بها كله. نستطيع القول ونحن على ثقة من صحته: إن ابن بطوطة يعد

بجدارة أول سائح كتب عن مجاهل أفريقيا المتوسطة.. وأعظم رحالة عربي وهب حياته للكشف عما لا يعرف من البلاد ووصف الحالة الاجتماعية في العالم الإسلامي في العصور الوسطى.

٢- خط سير الرحلة: أما عن الخط الذي سارت فيه رحلة ابن بطوطة فسوف يكون ذلك بسرد جميع المدن والأماكن التي مر بها ابن بطوطة منذ خرج من بلده طنجة بالمعرب حتى مدينة «تكدا» بالسودان الغربي.. وذلك في صورة خالية من الحكايات، والغرائب، والأوصاف؛ حتى يستطيع الإنسان منَّا أن يأخذ فكرة سريعة مجملة عن كل الأماكن التي سار بها ابن بطوطة والتي نزلها.. وسوف يوضح ذلك بعدة خرائط، وسوف نضع أثناء عرضنا نقطة بين كل مكان وآخر تبين أنه انتقل من هذا المكان إلى ذاك.

في طريقه إلى مصر: طنجة. تلمسان. مليانة. ثم يتوجه إلى الجزائر. منبجة. بجابة. قسنطبنة. بونة. تونس. سونة. صاقس. قابس. طرابلس، ويتحدث هنا ابن بطوطة قائلًا: وتجاوزنا ميلاتة، ومسراتة، وقصور سرت، ثم نتوسط الغابة ونجاوزها إلى قصر برصيص العابر إلى قبة سلام. الإسكندرية. قرية تروجة. دمنهور. فورا. التحرارية. أبيار (وهي على مقربة من النحرارية ويفصل بينهما النيل). المحلة الكبرى. فلسطين: على ساحل البحيرة المتجمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو على مقربة منها. دمياط. فارسكور. أشمون الرمان -لكثرة الرمان بها-. سمنود. القاهرة (وهنا تنتهي رحلته بالوجه البحري حيث وصل إلى القاهرة).

في صعيد مصر: دير الطين. منية القائد، بوش. دلاص. ببا. ألبهنسا. منية ابن خصيب. ملوي منفلوط. أسيوط. أخميم. هو. قنا. قوص. الأقصر. أرمنت. إسنا. إدفو. العطواني. حميثرا. عيذاب. ويعود ابن بطوطة إلى صعيد مصر، ويصل مرة ثانية مدينة قوص، قال: (وانحدرنا في النيل ثمانية أيام بعدها وصلنا قوص مصر)، وبات بمصر ليلة وقصد بعدها بلاد الشام في منتصف شعبان سنة ست وعشرين.

إلى الشام: بلبيس. الصالحية. الرمال. غزة. مدينة الخليل (صلى الله عليه وسلم). القدس. عسقلان. الرملة. (وهي فلسطين) نابلس. عجلوت. الغور. القصير. عكة. صور. صيداء. طبرية. بيروت. طرابلس. حصن الأكراد.حمص. المغرة. سرمين. حلب. تيزين على.

طريق قنسرين. أنطاكية. بغراس. بلاد سيس. حصن القصيد. حصن الشفر. بكاس. صهيون. حصن القدموس. حصن المينقة. حصن العليقة. حصن مصيماف. حصن الكهف (وتسمى حصون أفداويه). جبله، اللاذقية. حصن المرقب وهو يماثل حصن الكرك. الجبل الأقرع: جبل لبنان (أخصب جبال الدنيا). بعلبك. دمشق الشام.

إلى الحجاز: خرج ابن بطوطة من دمشق قاصدًا الحجاز فوصل قرية الكسوة. قرية الصنمين. زرعه: وهي من بلاد حوران. بصرى. جزيرة الكرك بالثنية. معان آخر بلاد الشام. عقبة الصوان. ذات حج. وادي بلدح. تبوك. بركة المعظم. بئر الحجر. ممر ثمود. العلا. العطاس. هدية. طيبة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم.. وقصد بعد ذلك مكة. مسجد

ذي الحليفة. وادي العقيق. شعب علي عليه السلام. الروحاء. الصفراء. بدر. الصحراء المعروفة بقاع البزواء. وادي رابع. خليص. عقبة السويس. بركة خليص عسفان. بطن قر الظهران. قال ابن بطوطة: وأدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة.. ثم يأخذ في وصفها وذِكر آثارها ومحاسنها: كالمسجد الحرام، والميزاب المبارك، والحجر الأسود، وماء زمزم.. إلخ.

الطريق من مكة حتى بغداد العراق: بطن حسر. ثم يعود إلى: عسفان. خليص. وادي السمك. بدر. الصفراء. المدينة الشريفة. طيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وادي العروس. أرض نجد. العسلية (ماء). النصرة. القارورة. الحاجر. سميرة «أرض» الجبل المخروق. وادي الكروش. حصن فبد الأجفر (ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة). البيداء. زرود. الثعلبية. بركة المرجوم. المشقوق. التنانير. ضحوة. بزمالة القرون. العذيب. القادسية صاحبة الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الإسلام. مدينة مشهد علي بن أبي طالب بالنجف. وهنا يحدثنا ابن بطوطة قائلًا: ولما تمت لنا زيارة أمير المؤمنين على سافر الركب إلى بغداد وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة، واكتريت جملا وخرجت من مشهد عَليّ فنزلنا الخورنق. قائم الواثق. ومررت بجانب الفرات من موضع معروف «بالعذار»: وهي غابة قصب وسط الماء، وسط ماء الهضيب. وادي الكراع. المشيرب. ضحوة النهار. البصرة. الآبلة. عبادان. اللور. عراق العجم. عراق العرب.

ماجول. رامز. تستر: وهي آخر البسيط من بلاد أتابك وأول الجبال. ايذخ. اشتركان. فيروزان. نبلان. أصفهان من عراق العجم. حتى «مابين» شيراز. بلاد الشول. كازرون. الزيدين. الحزيزاء. الطرفاوي (موضع). الكوفة. بئر ملاخة. الحلة. كربلاء. بغداد (دار السلام).

ويخرج من بغداد في حاشية السلطان أبي سعيد ووصل مدينة «تبريز» ثم عاد بغداد ليتستوفي ما أمر له به السلطان.

إلى الموصل وديار بكر: قرية حربة سر من رأي. تكريت. العقر. العيارة. ويمر بعد ذلك بأرض سوداء بالقار وسافر من هنا حتى وصل الموصل. قرية عين الرصد. قرية المويلحة. جزيرة ابن عمر. نصيبين. سنجار. دارا. ماردين. ثم يعود إلى بغداد ليسافر إلى الحجاز وظل بالحجاز حتى عام٧٦٠هـ.

إلى اليمن: حده جده. رأس دوائر بين عيذاب وسواكن. أولاد كاهل. جزيرة سواكن. مدينة حلي (ابن يعقوب). السرجة. مرسى الحادث. مرسى الأبواب. زبيد. قرية غسانة. جلبة. تعز صنعاء. عدن. زيلغ. مقدشو.

بلاد الساحل: وركب ابن بطوطة البحر من مقدشو قاصدًا بلاد الساحل والزنوج. جزيرة متبسي. كلوا. ظفار الحموض آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي. مرسى قرية صور. قلهات. بلاد عمان. نزوا. هرمز. هرمز الجديدة ومدينتها تسمى «جرون». كورستان. لار. خمج بال. قيس(سيراف). البحرين. القطيف. هجر. اليمامة. وفي سنة ٧٣٢هـ

سافر من هذا المكان برسم الحج فوصل مكة وحج آخر حجة، جده. ورام عيذاب، فردته الريح إلى مرسى يعرف «برأس دواير»، ومن رأس دواير وصل: عيذاب. حميثرا.

بلاد الروم: بعد العودة إلى صعيد مصر مر بهذه الأماكن لبلاد الروم. قرية العطواني. اللاذقية.العلايا: وهي أول بلاد الروم. أنطالية (أما التي بالشام فهي أنطاكية). بردور. سبرتا. إكريدور. اللارنده. أقصرا. نكدة. قيسارية. سيواس. أقاصية. كمشن. أرزنجان. أرز الروم. بركى. تييرة. أيا سلوق. يزمير. معنسية. برغمه. بل كسرى. برصا. يزنيك، وقبل الوصول إليها بات بقرية كرلة. قرية مكجا. كاوية. ينجا كينوك. مطرني. بولي. كردلي. برلو. قصطمونية. صنوب. صحراء دشت قفجق. الكفا. القرم. أزاق. الماجر. ثم قصد معسكر السلطان. بلغار. مدينة الحاج ترخان. أكك. سردق بلدة بابا سلطون آخر بلاد الترك. وسافر في البرية ١١يومًا وصل بعدها إلى حصن مهتولي أو عمالة الروم، وبينه وبين القسطنطينية اثنان وعشرون يومًا. حصن مسلمة بن عبد الله على سفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلي. الفنكية. القسطنطينية. ووصل مرة آخر بابا سلطوق. بن الحاج ترخان. نهر أتل. السرا. سراجون على شاطئ نهر الوصو. خوارزم. الكات. سيبارية. ويكنة. بخاري. نخشب. محلة السلطان طرمشيرين سلطان ما وراء النهر. سمر قند. نسف. يرمذ. ثم اجتاز نهر جيحون إلى بلاد خراصان ووصل مدينة بلخ. جبال فوه أستان. هراة. الجام. طوس. مشهد الرضا. سرخس. زاوه. نيسابوره.

بسطام. قرية فندوس. قرية بغلان. اندر. جبل هندوكوش. حصن بنج هير. جبل بشاي. يرون. قرية الجرخ. غرنة. كابل. كرماش (حصن) شسيفار وهي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك.

السند: بنج آب (وادي السند). جناني. سيوستان. لاهري. بكار. أوجه ملتان: قاعدة بلاد السند.

الهند: أبو هر. حصن أبي بكهر. أجورهن. سريتي. حانس. مسعود آباد. ثم نزل بالقرب من قرية (بالم). دلهي قاعدة بلاد الهند. بجنور. أمروها. ويعود مرة أخرى إلى دلهي. ومن عام ٧٣٤هـ إلى عام ٧٤٣هـ وهو ببلاد الهند، ثم يخرج سفيرًا إلى الصين.

إلى الصين: منزل يلبت. منزل (أو). منزل أهيلو. تيانة. كول. الجلالي (وكان الذهاب إليها لغزوة) وهنا يجول جولات عدة بعد الغزو وتحدث له مآزق ويعود لأصحابه بكول. برج بوره. آب سياه (ماء). قنوج. منزل هنول. منزل وزيربور. منزل البجالصة. موري. مسره. علابور. كالمبور. برون. أمواري. منزل كجرا. جنديري. ظهار وهي مدينة المالوه أكبر عماله بتلك البلاد. أجبن. دولة آباد. نذربار. صاغر على نهر باسمها. كناية. كاوي. قندهار. جزيرة بيرم. قوقة. جزيرة سندابور هنور. بلاد المليبا وهي بلاد الفلفل. أبي سرور. فاكنور. منجرور. هيلي. جرفتن. ده فن. بدفن. فندرينا. قالقوط. ثم يسافر إلى الصين عن طريق بحر الصين. كنجى كري. كولم. وهنا يعود مرة أخرى إلى قالوط. ويسير بعد ذلك إلى جزر ذيبة المهل. ونزل هذه الجزر: جزيرة كنلوس. جزيرة عثمان. جزيرة لوزير (ويقال له التلمدي).

جزيرة المهل. جزيرة العزيز علي. جزيرة ملوك. جزيرة سيلان. مدينة بطالة. منارة مندلي. بلدة بندر سالاوات. كنكار. مغارة أسطا محمود اللوري. خوربو زنة. خور الخيزران. مغارة بابا طاهر. مغارة السبيك. مغارة الخصر. مغارة شيم. خور السمك. قرية كرملة. دينوره فالي. كلنبو. بطالة. بلاد المعبر. فتن. مطرة. وعاد لقالقوط وجزر ديبة المهل ثانية، ونزل بكنلوس، وبعد ٢٤يومًا وصل بلاد بنجالة. مدينة سدكاوان. جبال كامرو. حنبق. سنركاوان. بلاد البرهنكار. جزيرة الجاوة. قرية البندر. سمطرة. مل جاوة (من بلاد الكفار). مرسى قافلة. مدينة قافلة. البحر الكاهل (أي الراكد). بلاد طوالس. ثم رسى في مراسيها بمدينة كيلو كري وبعد ذلك يصل بمساعدة الريح إلى.. بلاد الصين.

جولة ببلاد الصين: الزيتون. صين كلان (هي مدينة صين الصين) ثم آب إلى مدينة الزيتون. فنجنفو. بيوم قطلو. الخنسا. بلاد الخطا. خان بالق(بكين).

عود على بدء: ويعود ابن بطوطة إلى الهند والصين، ويظل في طريقه حتى بغداد وبلاد الشام حتى صعيد مصر فتونس وفأس في حضرة السلطان، ثم طنجة ثم سبته.

إلى الأندلس: سبته. جبل الفتح. رندة. مربلة. مالقة. بلسن. الحمة. غرناطة. ثم يعود إلى الحمة وبلسن ومالقة. حصن يزاكوان. رندة. قرية بني رياح. جبل الفتح. سبتة. أصيلا. سلا. مراكش. ثم يعود لسيلا. مكناسة. ثم يعود إلى حضرة سلطان فأس.

نهاية المطاف (إلى السودان): وهنا يبدأ التوجه إلى السودان فيصل أولًا سجلماسة. قريعة تفازا. باسرهلا: وهي وديان ماء تنزل عليها القوافل. ايوالاتن. قرية زاغري. ثم وصل إلى النهر الأعظم وهو النيل. كارسخو. نهر صنصرة. مالي حضرة ملك السودان. طريق ميمة. ووصل إلى خليج كبير على النيل وأقام في قرية على هذا الخليج ثم رحل إلى بلدة. قرى منسما. بلدة ميمة. تنكتو. ثم وصل إلى بلد نسى اسمه. كوكو. بردانة. تكدا. وخرج من تكدا يوم الخميس ١١شعبان سنة ٧٥٤هـ فوصل كاهر (من بلاد السلطان التكركري). ثم دخل في برية لا عمارة فيها ولا ماء، ثم وصل إلى بلاد هكار. بلاد بربرا. ثم بودا: وهي من أكبر قرى تواب. سجلماسة. دار الطمع. ثم آب إلى حضرة سلطان فأس وهنا تنتهي رحلة ابن بطوطة في ثالث ذي الحجة عام ٧٥٥هـ. وبهذا نكون قد رسمنا أمام القارئ صورة واضحة المعالم بارزة الخطوط لما قام به ابن بطوطة من جهد في تجواله بأنحاء المعمورة، ولا أدل على هذا الجهد الضخم الذي قام به (اللواتي الطنجي) من كثرة البلاد التي مر بها وسيره في طرق ربما يستعصى على الرحالة المحدثين السير فيها.

٣- غرائب الرحلة: وفي الحديث عن غرائب الرحلة سوف أسرد طرفًا موجزًا مما صادفه ابن بطوطة من حيوان غريب، أو إنسان، أو عادة غير مألوفة في المجتمع الإنساني ومما أثار استغرابه وأدهشه.

١- في أحد أقاليم الهند المعروف باسم «السند» دخل المركب الذي يقل ابن بطوطة عيضة قصب لسلك الطريق، فيخرج عليهم

الكركون: وهو حيوان غريب عجيب يقول ابن بطوطة في وصفه: أنه أسود ذو جسم عظيم، كما أنه ضخم الرأس، ولعظم رأسه ضُرِب بِها المثل، فقيل عنه: (رأس بلا بدن). كما أنه وحيد القرن الذي يقع بين عينيه وطوله ثلاثة أذرع، أما العرض فيصل إلى شبر، وهو كالحيوان المعتاد في أكله حيث يرعى نبات الأرض.

٢- ومن أغرب العادات التي شاهدها ابن بطوطة وأدهشته: حرق الهندوس لموتاهم. ويحكي ابن بطوطة عن هذه العادة قائلا: «رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أن كافرًا من الهنود مات وأججت النار لإحراقه، وامرأته تحرق نفسها معه. ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه».

٣- ومن تلك العادات بالهند حرق النساء مع أزواجهن حتى يمتن، وإحراق المرأة لنفسها أمر مندوب غير واجب، ويعد ذلك عندهم شرفًا من قبيل الوفاء، والتي لا تحرق نفسها تلبس ثيابًا خشنة كما يوجد الآن في العادات الشائعة. ولابن بطوطة في حرق النسوة لأنفسهن كلام كثير لا داعي للإطالة بذكره، ولنقرأ فقط حكايته حينما رأى منظر إحراق النسوة حيث قال: «ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أصحابي الذين تداركوني بالماء فغسلوا وجهي وانصرفت».

٤- يتقرب الهنود إلى آلهتهم بالغرق في نهر الكنج المقدس (ألكنك)، يقول ابن بطوطة عنه: (وهو الذي يحجون إليه وفيه يُرمى برماد هؤلاء ويقولون: أنه من الجنة).

٥- السحر ينتشر بكثرة في بلاد الهند، والسحرة يسمون أنفسهم (الجوكية) ويصورون في صور حيوانات، كما رأى ابن بطوطة أمورًا عجيبة من السحر مثل: ارتفاع رجل متر في الهواء واختفائه، وتقطيع أوصال صبي وإعادتها.. إلخ. وقد مرض ابن بطوطة من مشاهداته مثل ذلك متأثرًا بعملية التنويم.

٦- وفي جزائر ذيبة المهل (ملديف) جنوبي الهند غربًا كان من عادة أهل هذه الجزر (أنه إذا تزوج الرجل ثم ذهب إلى دار زوجته بسطت له نبات القطن من باب دراها إلى باب البيت، وجعل عليها عزفات الودع عن يمين وشمال الطريق إلى البيت، وتكون المرأة عند باب البيت منتظرة، فإذا وصل رمت على رجليه ثوبًا.. وإن كانت المرأة هي التي تأتي حدث مثل هذا).. كذلك السلام على السلطان لابد فيه من رمي الثوب آنذاك، ولابد من وجود الجميع حافي القدمين.

٧- وفي طريق ذهاب ابن بطوطة إلى الصين وفي آخر يوم من معركته مع الكفار عَطِش، فرأى بئرًا ليس حولها أحد، ووقف حائرًا كيف يخرج الماء؟.. هل ينزل إلى البئر ولكنه ضعيف. وخطرت له فكرة حيث أخذ عمامته وربطها وأدلاها في البئر، وانتظر حتى ابتلت وسحبها وعصرها في فمه، ولكنها لم ترو غلته، فربط حذاءه ودلاه فامتلأ، وعند خروجه سقط.. فدلى الثاني بعد إحكام ربطه وشرب حتى شبع، وجلس على حافة البئر وقال الحمد لله.

٨- النساء في جزر ذيبة المهل لا يلبسن سوى فوطة واحدة

تسترهن من السرة إلى أسفل، أما الباقي من الجسد فعارٍ. يقول ابن بطوطة عنهن: (ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسرهن إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها، ولقد جهدت لما وليت القضاء بهذه الجزر أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس، فلم استطع ذلك).

٩- من عادات أهل الجزر الغريبة أن المرأة تأكل وحدها لا مع زوجها، فهي تأتيه بالطعام ليأكل، ثم بالماء ليغسل يديه..كذلك من عاداتهم أن الرجل لا يعلم ما تأكله زوجته.

١٠- وفي سيلان يحكي ابن بطوطة –ما يعده الدكتور شوقي ضيف في كتابه الرحلات ص١١٦ خرافة- حيث يقول في وصف القرود بأنها سود مع كثرتها، ولها أذناب طوال، ولذكورها لحى كبني الإنسان.. وهذا ما عجب منه ابن بطوطة وما عَدّه الدكتور شوقي خرافة.. ومن عجيب ما رآه ابن بطوطة أيضًا في هذه الجزيرة رؤيته الصخرة التي وضع عليها آدم قدمه.

١١- أما العجائب التي رآها أبو عبد الله في الصين فتكاد تكون شبيهة بالتي رآها بالهند.. ففي الصين يحرقون موتاهم كالهنود.. ويقول: إن من عجيب ما شاهده في بلاد الصين أنه إذا دخل مدينة ثم خرج منها وبعد مدة عرج عليها رأي صورته وصورة زملائه منقوشة في الحيطان والكواغد، وموضوعة في الأسواق؛ وذلك لغرض عندهم (هو أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره بعثوا صورته إلى البلاد، وبحثوا عنه؛ فحينما وُجِد شبيه تلك الصورة أُخِذ).

١٢- وشاهد في الصين من السحر ما عجب له كما عجب مما رأى في الهند من ذلك: رمى ساحر وهو في مجلس الأمير كرة من خشب لها ثقب به سيور في الهواء فاختفت، ثم أمر متعلمًا له بالصعود في الهواء فتعلق به واختفي، ودعاه ثلاثًا للهبوط فأبى، فصعد له ومعه سكين واختفى، ورمى يده، ثم رمى رجله، ثم جسده، ثم رأسه، ثم هبط وثيابه كلها دماء، وأحذ أعضاء الصبي وأعادها كما كانت فقام سويًا، فعجب من ذلك ابن بطوطة وأصابه دوار وخفقان قلب وقال: (كل ذلك شعوذة).

١٣- وفي الرحلة الثالثة بالسودان المغربي حينما وصل ابن بطوطة (تفازا) عجت من بيوتها؛ لأنها تتخذ من حجارة الملح، وللملح عند السودانيين شأن كبير يتابعون به كالذهب والفضة عندنا، كما عجب من كثرة الأشجار والفجوات التي يحفظ فيها ماء المطر وكأنها آبار يشرب منها الناس، ويقول ابن بطوطة:

(ومن مساوئ أفعالهم -أي أهل السودان- أن الخدم، والجواري، والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا)

وفي زاغة بالسودان المغربي أيضًا يدخل الشعراء في جوف صورة مصنوعة من ريش تشبه طائر الشقشاق، لها رأس خشبي به منقار، ويقفون بين يدي السلطان وينشدون الأشعار.

١٤- حينما أشرف ابن بطوطة على نهر النيجر رأى ١٦ دابة ضخمة الخلقة، حسبها فيلة وسأل عنها فقيل: إنها أفراس البحر، وقال

في وصفها: (إنها أغلظ من الخيل، ولها أعراف وأذناب، ورؤوسها كرؤوس الخيل، وأرجلها كأرجل الفيلة، وهي تقوم في الماء وترفع رأسها وتنفخ. وهي تُصَاد هناك ليؤكل لحمها). وهنا يحدثنا ابن بطوطة عن أكلة لحوم البشر، ويقص علينا حكايات تُروى عنهم، ولقد رأى ابن بطوطة أعجب من ذلك حيث يصطاد بقر الوحش هناك بالنشاب والكلاب، ثم يعصر الكرش ويشرب ماؤه.

٤- أنطعن في أحبار ابن بطوطة والشك في ذهابه إلى الصين؟

قام رحالتنا الإسلامي الكبير بعمل ضخم أدى إلى أن انبرى له جماعة من حساده ومعانديه يكذبونه، ويسفهون رأيه، ويعدّون ما أتى به خرافة وافتراء، وفي ميدان البحث وراء الحقيقة تطاحَن لفيفٌ من الباحثين الكبار حول الشك في وصوله للصين، والطعن في أخباره حين يسرد بعض الحكايات أو يقص بعض الفكر والعادات التي رآها في مختلف البلدان. وهنا يدلي كل بدلوه، فمِن منصف يعطي الرجل حقه ما دامت أخباره في حيز المعقول ولم يقم دليل من السماع أو الرؤية على كذبه، إلى متطاول عليه يطرح أغشية سوداء على بياض صدقه، ومن متذبذب بين الصحة والصواب إلى مُسلِّم بالواقع الذي أمامه، ولكن ما هو الدافع الحقيقي الذي أدّى بالنقاد المؤلفين إلى الشك في أخبار ابن بطوطة؟.

ويجيب الدكتور زكي محمد حسن عن هذا السؤال في حديثه عن ابن بطوطة بالصفحة ١٣٧من كتابه «الرحالة المسلمون في العصور

الوسطى» إذ يقول: إن سبب الاضطراب في أخبار أعظم رحالة عربي في العصور الوسطى هو أنه لم يقم بتدوين أخبار رحلته بنفسه، بل أسند هذه المهمة إلى كاتب خاص من قِبَل سلطان فأس: هو ابن جزي، تاركًا لأفكاره العنان دون أن يلاحظ أنه أمام أمانة علمية لا تستدعي إظهار الفضالات الأدبية، ولابد فيها من تحرّي الدقة والضبط.. لذا نراه يلجأ إلى الحذف تارة، والإضافة أخرى؛ لا سيما في حديث ابن بطوطة عن الصين.. ولما كان ذلك يدل على النقص في الأول، والمبالغة أو الخطأ في الثاني، رماه البعض بتهمة الكذب، وأنه لم يصل تلك البلاد.. ولم يلبث الدكتور زكي محمد حسن أن رد هذه التهمة قائلًا: إن ابن بطوطة كان صادقًا في كل ما حكاه عن أسفاره، وأن ما يدَّعيه البعض بخصوص أخبار ابن بطوطة عن الصين وأنها ليست سوى خرافة ما هو إلا حقيقة لا تشوبها شائبة، حيث إن معظم تلك الأحاديث يدعمها ويقرها ما نعرفه عن رحلة «ماركوبولو» الذي مكث في رحلته الصينية سبعة عشر عامًا، وتوفي قبل قيام رحلة ابن بطوطة إلى الشام، والهند، والصين، والأندلس، والسودان بسنة واحدة.. وأن المتتبِّع لرحلة ماركوبولو يرى أن ما حكاه عن الصين يوافق تمامًا ما حكاه شمس الدين عنها.. فما الداعي إذن إلى الطعن في حق الرجل مع أنه كان لا يعرف لغة ماركوبولو حتى نقول أنه قرأ رحلته، ولم يكن ابن جزي هو الآخر يعرفها حتى يدِّعي المدَّعون أنها ترجمت عن طريقه.

ويشير الدكتور حسين فوزي إلى قصة نزول ابن بطوطة ببلاد

طوالسي في المحيط الهادي عقب خروجه من «مل جاوه» وركوبه «الجنك» عبر البحر الكاهل أو الراكد، ويقول: إن وصفه لتلك البلاد من دواعي الشك في سفره إلى بلاد الصين، ويعين في ذلك وصفه لنسائها، وإن وصف هذه البلاد له صلة بأسطورة جزيرة النساء وأسطورة الوقواق،ثم يقول بالحرف الواحد: «ولعبد الله اللواتي الطنجي عيون متطلعة نحو النساء في كل رحلاته». ثم يقول الدكتور «فلندعه يتكلم». ويقص علينا في كتابته تلك الحكاية التي دعته إلى الشك في ذهاب ابن بطوطة للصين وها هي: يقول ابن بطوطة في «تحفة النظار»:

ثم وصلنا إلى بلاد طوالسي، وأهل هذه البلاد عبده أوثان، حسان الصورة، أشبه الناس بالترك في صورهم.. والغالب على ألوانهم الحمرة، ولهم شجاعة ونجدة، ونساؤهم يركبن الخيل، ويحسن الرماية، ويقاتلن كالرجال سواء، وأرسينا من مراسيهم بمدينة (كيلوكري).. ولما كان في اليوم الثاني استدعت الملكة (أروجا) الناخوذة (صاحب المركب)، والكراني (وهو الكاتب)، والتجار، والرؤساء، والتنديل (وهو مقدم الرجال)، وسباه بالار (وهو مقدم الرماة) لضيافة صنعتها لهم على عادتها.. ورغب الناخوذة مني أن أحضر معهم فَأَبَيْتُ لأنهم كفار ولا يجوز أكل طعامهم، فلما حضروا عندها قالت لهم: هل بقي أحد منكم لم يحضر؟ فقال لها الناخوزة: لم يبقَ إلا رجل واحد بخشن «وهو القاضي بلسانهم» وهو لا يأكل طعامكم؛ فقالت: أدعوه، فجاء جنادرتها وأصحاب الناخوزة فقالوا: أجب الملكة، فأتيتها وهي بمجلسها الأعظم

وبين يديها نسوة بأيديهن الأزمة يعرضن ذلك عليها، وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها، وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل، ومجلسها مفروش بالحرير وعليه ستور حرير وخشبه من الصندل وعليه صفائح الذهب «فلما سلم على الملكة كلمته بالتركية.. إلخ». وأخبره المناخوزة أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة، وخدم، وجوارٍ يقاتلن كالرجال، وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء فتُغِير على عدوها، وتشتد في القتال، وتبارز. وقُتِل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون، فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله فطعنته طعنه كان فيها فمات وانهزمت عساكره وجاءوا برأسه على رمح فافتكه أهله بمال كثير، فلما عادت إلى أبيها ملَّكها تلك المدينة.. وخبرني الناخوزة أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني فيتحاشون مبارزتها خوف المعرة إن غلبتهم.. ثم سافرنا عن بلاد طوالس فوصلنا بعد سبعة عشر يومًا والريح مساعدة لنا إلى بلاد الصين.

هذه هي القصة التي دعت (حسين فوزي) يشك في الحكاية وفي صحتها، فإن بها نفحة يصفها بأنها أمازونية، يَشْتَمُّ فيها أريج الأسطورة موضوع حديثنا –رأى حديثه في السندباد عن الأساطير الخرافية– بل وحكاية الوقواق إذا ذكرنا حكاية عيسى بن منير السيرافي عن الملكة دمهرة، وقد دخل عليها فوجدها على سريرها عريانة؛ وذلك ما دام ابن بطوطة يذكر البحر الكاهل ويسافر من طوالسي إلى الصين. ثم تجنَّى الدكتور بعد ذلك على ابن بطوطة قائلًا: فليس ببعيد أن تكون حكاية «أروجا» نوعًا من السطو الأدبي على قصة عَلِقت بذهن ابن بطوطة من

مطالعاته عن البلاد في شرق الصين، ونسبها إلى نفسه وهو يملي على محمد بن جزي الكلبي ما وعته الذاكرة من رحلاته.

وهنا نستطيع الرد على الدكتور بأن قوله: إن لعبد الله اللواتي الطنجي عيونًا مُتطلِعة نحو النساء، يثير انتباهنا؛ فإما أن يكون معناه أن هذا الرجل يحب الاطلاع على مختلف العادات في كل مكان؛ وخاصة أحوال النسوة كي يقف على أمورهن التي في العادة تكون غريبة في نظره في الأقطار غير الإسلامية. ولا بأس على الدكتور أن أراد هذا.. أما إن أراد أنه يميل بقلبه إلى النساء ويحب رؤيتهن فهذا اعتداد على كرامة ذلك الرجل الذي تربى في أسرة عُرفت بالفقه في القضاء، والذي حج أربع مرات في حياته وكان الحج هو السبب الأول في رحلته التي قطعت أطول المسافات في العصور الوسطى.. كبرت كلمة تخرج من فم الدكتور يخرج بها على حدوث البحث وينبش به قبر رحالتنا الذي تولى القضاء ثلاث مرات خارج بلده، مما يدل على نبل أخلاقه، وسموه، ومدى علمه الجم، وفقهه الغزير.

ويرد الدكتور زكي محمد حسن على رأي الدكتور حسين فوزي بأن ذلك يدعو إلى الشك فيما نسبه ابن بطوطة إلى نفسه، لا في سفره لتلك البلاد.. ولكني أعترض على الدكتور زكي بأن نزعة الرجل الدينية وتلك الثقة التي لا نشك فيما نسبه ابن بطوطة إلى نفسه، فالرجل أكبر من الكذب وارتياد ثياب الكذب.. وعلى هذا فابن بطوطة صادق فيما نسبه إلى نفسه وفي ذهابه إلى الصين؛ حيث إن ذهابه إلى تلك البلاد قائم

على المشاهدات الشخصية.. أما كونه لم يلم بأسماء البلاد كلها وقَصَّر في شيء من ذلك، فلأنه لم يدون رحلته بنفسه أولًا بأول، وهذا ما أنساه الكثير من الأسماء الصينية.. أو أن ذلك راجع لاقتضاب ابن جزي وإطنابه المبالغ فيه في بعض الأخبار. وهل كان من الصعب أن يصل ابن بطوطة إلى الصين؟ بل كانت أمرًا ميسورًا لابن بطوطة بوصفه سفير سلطان دلهي. ومن جهة أخرى لست مع الدكتور حسين فوزي في أن هذه الحكاية التي ساقها كانت نوعًا من السطو الأدبي في شرق الصين.. حيث إنه أملى الرحلة وهو بعيد عن أتعاب السفر والتنقل، وبوازع من ضميره الحي ونفسه الصادقة.

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلًا لنعرف رأي القدماء في هذه الرحلة، صادفنا ابن خلدون المؤرخ الكبير يشك أيضًا فيما قاله ابن بطوطة، ولنقرأ ما جاء عنه في مقدمته بالنص؛ إذ يقول: «وورد لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مريم رجل من مشيخة طنجة يُعرَف بابن بطوطة، وكان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلب في بلاد العراق، واليمن، والهند، ودخل مدينة دلهي حاضرة ملك الهند (وهو السلطان محمد شاه)، وكان له منه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله. ثم انتقل إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يتحدث عن شأن رحلته وما رأي من العجائب بممالك الأرض. وأكثر ما كان يتحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغرب به السامعون». من هذا نستنتج أن ابن خلدون يعتبر ما يأتي به

ابن بطوطة من أخبار غريبًا، ولا شك أن تلك بذرة شك في أخبار الرجل، ولئن شك ابن خلدون في أخبار الرجل فليس فريدًا في ذلك، فلقد أبدى كاتب الرحلة نفسه (ابن جزي) الشك في بعض ما نقله الرحالة فقال: «وأوردت من الحكايات والأخبار.. ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ولا اختبار». ولكن هل معنى هذا أننا نطعن في أخبار الرجل؟.. لا.. إن ابن جزي محق في هذا حيث إنه لم يرَ شيئًا بنفسه، ولكنه التزم الحياة لمعرفته مدى نزاهة الرجل، وأنه أسمى من أن يمزج آثاره الخالدة بأخبار كاذبة.

وينصف الدكتور نقولا زيادة ابن بطوطة في كتابه «الرّحالة العرب» حيث وجّه الأنظار إلى أن الكثرة من الباحثين تجمع على أن الرجل كان أمينًا، ويقول: إن ما وقع في رحلة الرجل من هناك يعد من قبيل الخطأ غير المتعمد، أو النسيان، أو إدخَال للروايات والأساطير من غيره.. ويذهب مذهب الدكتور زكي محمد حسن في أن ترتيب أسفاره ليس واضحًا لسببين هما:

١- أنه قد أملى أخباره بعد مضي فترة غير قصيرة من انتهاء الرحلة وكان قد فقد أوراقه.

٢- لم يكمن يعنيه الوصف الحسي كما يعنيه الوعي الذهني، فقد أهمل إلى حد ما الصفة الطبيعية. حومة هذا التطاحن الشائك حول رحلة شمس الدين إذ يقول في مؤلفه (الرحلات - ١١٦): إن ابن بطوطة يقص علينا أنه رأى في جزيرة سيلان الصخرة التي وضع آدم قدمه عليها

وهي خرافة، ويضيف إلى اتهامه هذا اتهامًا مضاعفًا فيقول: لقد أودع ابن بطوطة رحلته من الخرافات مما يدل على مبالغته الكثيرة، وأن الواقع عنده ضرب من ضروب الخيال. ولكن لا أدري كيف أباح الدكتور لنفسه حق الاتهام السافر الذي يرمي به الرجل مع أنه لم يدعم رأيه بأدلة، وأدلى برأيه وتركه في الهواء، ثم كيف يجرؤ على القول بأن الواقع عند ابن بطوطة ضرب من ضروب الخيال؟ مع صدق أقوال الرجل بالدليل القاطع الذي شهد به العلماء المستشرقون، حيث اعتنوا برحلة الرجل وقابلوا أقواله بأقوال غيره من رحالة عصره أو ما يقرب منه مثل (ركوبولو)، فبدا لهم في وضوح الشمس صدق ما أتى به اللواتي الطنجي، ونحن على يقين من أنه لو ظهر لأحدهم كذب لأذاعه.. وهم على ما نعلم من وفور العلم، وصدق البحث، وقوة الاستنباط والتمييز بين غث وثمينة ما يجعلنا لا نبدي أي ريب في رأيهم. ثم إن ادِّعاء الدكتور شوقي يتطرق إليه الاحتمال، حيث إنه يخمن، (وما تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال) كما يقولون. وهنا نستطيع اتِّهام الدكتور شوقي بأنه قد تجنى على الرحالة ابن بطوطة، فإنه من الصعب اتِّهام رجل الدين والقضاء بإتيان الخرافات، وأن الواقع عنده ضرب من ضروب الخيال؟.. وكيف يكون الواقع عنده بهذه الصفة وهو الذي كتب عنه وآمن بجميع ما جاء به عدا هذه الحكاية التي يعدها خرافة؟.. كما أن طيبة قلب ابن بطوطة وسذاجة طبعه تجعل من الصعب على الناقد العدل أن يقول أنه متعمد في كذب ما رواه؛ لأن صاحب هذه الصفة بعيد عن الكذب ومحاولة الغش. ودليلنا على ذلك أنه قد وصف نفسه كثيرًا بالنسيان في بعض الأمور..

مثلًا حينما يستعصى عليه تذكر اسم رجل أو بلد يعترف بأنه قد نسيه، ولا ينحو إلى اختلاف اسم لذلك مع إمكان ذلك كما يحاول المحاولون.

من هنا نعلم أن رحالتنا كان يجتهد في تحري الحقيقة ويشعر في قراره لنفسه أنه مأخوذ بما يقول، وحسبنا أن العلَّامة المستشرف (دوزي) سماه: «الصادق الأمين».

ويضيف الدكتور شوقي ضيف إلى ما مر، أن حكايات ابن بطوطة عن السحر في الصين خرافة.. وإذا كان الأمر كذلك فكيف نعلل انتشار السحر لدينا الآن مع العلم أن الهند والصين مشهوران منذ القدم بانتشار السحر عندهما، وبأساليبهما المحيرة في أداء أدواره، ويبدو أن الدكتور قد أُغرِم بالاتهام فيذهب في مقدمه كتاب «الرحلات» إلى أن ابن بطوطة قد يشفع حكاياته الحقيقة بحكايات خرافية، وهو في كل ذلك يتقن الصنعة.. مع أنه منذ قليل لم يعترف له بحقيقة وقال: إن الواقع عنده ضرب من ضروب الخيال؟.. وهو في ادعائه هذا يتهمه بالكذب ليضع نفسه في مصاف الرحالة الكبار؛ مع أنه في غنى عن كل هذا، ورحلته أكبر من اللجوء إلى الخرافات، وقد شهد الباحثون العرب والعلماء المستشرقون بأن ابن بطوطة أعظم رحالة عربي في العصر الوسيط.

نوع الرحلة:

إن ما جاءنا في المراجع يَقسِّم الرحلات إلى ثلاثة: جغرافية، وبحرية، وبرية في الأمم والبلدان.. أما الجغرافيِّة فلم يعتمدوا فيها على

الأخذ من الآخرين، بل طافوا بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره وقيدوا مشاهداتهم وما وقع تحت أبصارهم، ولو نقبنا في الرحلة العربية لبرزت لنا رحلات بحرية رويت عن التجار، والملاحين، وهواة البحار. وهي تبدأ عند العرب بمغامرات تاجر يسمى سليمان، قذف بنفسه في لجج المحيط الهندي وبحر الظلمات، وتضم في جناباها معلومات عن البحار، وأسمائها، وأصدافها، وساكنيها مما يؤكد الواقع أحيانًا، ويخلق الأخيلة أحيانًا أخرى. أما رحلات البر فهي كثيرة متنوعة: منها ما يلقى عصا التيار عند حدود بلد عربي كمعد، ومنها ما يتجاوز حدود العالم العربي كعالم البلغار وأوربا الشرقية، أو عالم الهند والصين والسودان. ولقد قص علينا ابن بطوطة كثيرًا من قصصه عن الأقطار النائية مثل: البلغار، والمغول، والهند، والصين، والسودان الغربي. هذا ما لجأ إليه الدكتور شوقي ضيف في تقسيمه للرحلات في كتابه (الرحلات)، وقد وضع كل مجموعة من الرحالة تحت قسم، عدد تحت عنوان: الرحالة الجغرافيون، ثم البحريون، ثم البريون وهكذا. وحينما جاء دور ابن بطوطة لم يضعه تحت نوع من أنواع الرحلات الثلاث، ولا أدري لماذا فعل الدكتور هكذا في منهج كتابه.. قد يكون ذلك لسبب واضح وهو أن ابن بطوطة يعتبر جامعًا لكل أنواع الرحلات الجغرافية والبرية والبحرية، كما حدث هذا مع ابن جبير أيضًا. ولا أدَل على ذلك من أنه وضع ابن بطوطة في باب خاص به مع أن الأبواب السابقة عليه عدا الرابع كانت تضم مجموعة من الرحالة؛ وبهذا نعتبره أعظم رحالة عربي جمع بين أنواع الرحلة الثلاثة. ولكن الدكتور نقولا زيادة ذهب إلى أن ابن بطوطة غير جغرافي وقال: إنه يفيدنا

في التاريخ والاجتماع أكثر، وتوضح الخرائط السابقة خط مسيره بالبحار كسفره مثلًا إلى مدينة القرم، ومن عيذاب إلى جدة ومكة.. إلخ.

لكني لا ارتضي زعم الدكتور نقولا زيادة؛ لأن ابن بطوطة رحالة جغرافي كبير، وصف أحوال البلاد في رحلته اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا، وقد تحدث كثيرًا عن أراضي البلاد التي مر بها وأنه يزرع بها كذا أو كذا، وعن أنواع أشجار ونباتات بها، ثم إن الرحلات الجغرافية في تعريف علماء الجغرافيا هي التي اعتمد فيها أصحابها على أنفسهم لا على الآخرين، وطافوا بالبلاد وشاهدوا بأعينهم.. وهل كان ابن بطوطة غير ذلك؟.. كما أن الدكتور فؤاد صروف في كتابه «الرُّواد» قد وضعه تحت عنوان «جغرافيو الإسلام» وعدَّه منهم، بل من أعظمهم حيث قال في مستهل حديثه عنه: ومن أعظم متجولي الإسلام رحلة وأكثرهم استيعابًا للأخبار أبو عبد الله اللواتي الطنجي.

إملاؤه الرحلة:

وحينما رحل ابن بطوطة عن كوكو من بلاد السودان وصل إلى تكدا، ولكنه كان قد انتوى الإقامة عند سلطانها لإكرامه له، وبعد ذلك يتجه إلى السودان وحوض النيل؛ ولكن في تلك الأثناء جاءه رسول من قبل سلطان فأس فوصلها بعد ثلاثة أشهر وصدع بالأمر؛ وبذلك انتهت رحلته.. ولما وصل عند السلطان أبي عنان من بني مرين أقام في حاشيته وراح يحدث الناس عن غرائب رحلته.. أما عام ٧٧٠هـ كان إملاء الرحلة في المدة التي استقر فيها بفأس حتى وفاته بها ما بين ٧٥٥هـ . ولما

علم السلطان بأمره أمر كاتبه الأديب محمد بن جزي الكلبي أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة، وأخذ ابن جزي في كتابة الرحلة وأضاف من عنده شواهد شعرية كثيرة كما في وصف دمشق، وبغداد، وحلب نذكر منها مثلًا في وصف دمشق:

حكى عن بعض الشعراء واسمه نور الدين أنه قال في دمشق:

دمشـــق منزلنـــا حيـــث النعـــيم بـــدأ
مكمـــلًا وهـــو فـــي الآفـــاق مختصـــر
القصـــب راقصـــة، والطيـــر صـــادحة
والزهـــر مرتفـــع، والمـــاء منحـــدر
وقـــد تجلـــت مـــن اللـــذات أوجههـــا
ولكنهـــا بظـــلال الـــدوح تســـتتر
وكـــل واد بـــه موســـى يفجـــره
وكـــل واد علـــى حافاتـــه الخضـــر

وانتهى ابن جزي من كتابتها عام ١٣٥٦م وسماها كما نعلم (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

تحقيق رحلة ابن بطوطة:

لقد أتحف ابن بطوطة المكتبة العربية بموسوعته الكبرى (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، وقدَّم خدمة جليلة لعلم الجغرافيا والاجتماع، وكان واحدًا من أسباب تقدمهما. وقد وقعت هذه الرحلة في جزأين كبيرين يبلغ عدد صفحاتهما قرابة الخمسمائة في طبعة

دار الكتب القديمة، أما وهي (مهذب الرحلة للأستاذ العوامري وأحمد جاد المولى) فقد وقعت في جزأين عدد صفحاتهما قرابة٦٥٠ صفحة، وهنا سوف نعرض المرحلة من زاوية المعنى والأسلوب.

المعنى: أما من حيث المعنى فقد تضمنت الرحلة أوصافًا لأحوال بلاد مختلفة يعجب منها الإنسان، وحينما نقرأ الرحلة نشعر أن ثمة أجزاء يغلب عليها طابع المبالغة، ولكننا نرجع ذلك لابن جزي الذي ضمن الرحلة كثيرًا من كلام ابن جبير، وبالغ كثيرًا، وأضاف أشعارًا كما سبق لنا أن أشرنا. ولكني أرجح أن رحالتنا خصب الخيال، يعطي صورة للحقيقة تقربها من الأخيلة والخرافة ولكنه صادق؛ لهذا لا أرتضي ما ذهب إليه د. زكي محمد حسن من أن ابن بطوطة قد يكون مصداقًا للمثل المشهور في بعض اللغات الأوربية:

ومعناه أن القادمين من البلاد النائبة لهم أن يختلقوا ما شاء لهم؛ إذ لا رقيب عليهم. ولكني على العكس من رأي الدكتور حيث أن الرجل كان مثالًا للأمانة والصدق، وهو أكبر من أن يختلق ما شاء إذ لا رقيب عليه.. إن ضميره كان رقيبًا عليه، ونزعته الدينية تمنعه من ارتكاب مثل هذا الافتراء.. ولا يشفع للدكتور ما ذهب إليه بعد ذلك من أن هذا لا ينقص من شأنه في أحاديثه الطريفة –وخاصة في الناحية الاجتماعية وغرائبها– وفي إثبات نظم نظن أنها من مستحدثات العصر الحاضر.. وبعد فإن القارئ سيجد رحلة ابن بطوطة متعة لنفسه، ونزهة لخاطره، وأنسًا لوحدته، وشحذًا لقريحته لما فيها من فنون الوصف البديع

لحوادث، وبلاد، وأصقاع، ونبات، وعيون، ومعادن، وهياكل، وقصور، ومصانع، وأحوال ملوك، وعادات رجال، وأخلاق وحضارات دفنت ثم اندكت، ومدنيات نزعت ثم أفلت.. ولكن أبا عبد الله كان دقيق الملاحظة في عرضه، نافذ البصر في وصفه، مُر النقد، كَلِف بدراسة الطبائع الإنسانية، حريص على أن يودع كتابه من تجاربه وملاحظاته كل مفيد نافع.. فهو بحق أمام تقويم البلدان السابقين الأولين الذين ساروا في الأرض فنظروا واخترقوا الآفاق فاكتشفوا.

وواضح جدا عند ابن بطوطة أنه كان يجد لذة في ذكر الأشخاص الذين عرفهم والتحدث إليهم وعنهم، وكان يشغل همه رجال الدين، وحرص على ذكرهم كثيرًا حتى لكأنه ذكرهم هدية وتبركًا، فراح يروي كراماتهم، ويدون أحاديثهم ليشوق القارئ من جهة ويطلعه على حياة من نواح المجتمع الإسلامي العربي من جهة أخرى.

الأسلوب: وحينما نلقي نظرة فاحصة على أسلوب الرحلة ونسلط ضوءًا كاشفًا على طريقة عرضنا، يبدو لنا في انبلاج الصباح أن المقدمة والخاتمة كُتِبتا بعبارة فيها شيء من التنميق والتكلف والسجع المفتعل.. وكذلك كل مقدمة لوصف مدينة عظيمة، أو لمقابلة سلطان، أو احتفاء بأمير.. ولا شك– وها هو الأرجح– أن ذلك كتب بقلم ابن جزي لأنه أديب، وتتطلع نفسه إلى إظهار موهبته لتنهال عليه عبارات الإعجاب وأساليب التفخيم.. أما وقد أتيحت له الفرصة بأمر من السلطان أبى عنان، فقد أطلق العنان لنفسه واستعان في كتابته ببعض الموضوعات

برحلة ابن جبير.. والمعروف أن ابن جبير كثير السجع والتزيين.. أما ما عدا ذلك فإن بعض الموضوعات خالية من الترتيب والتأليف، وتحتوي على الغريب الكثير من أسلوب العامة.

ولا نكتم عن القارئ أن ابن بطوطة لم يكن ليتحرز أحيانًا من أن يجمع قلمه بألفاظ يأباها الحياء، وبأساليب تخالف ما نعهده من العظماء.. ولكنه كان سليم النية في ذلك.. كما أن كان له أساليب وألوان مختلفة التعابير، وضروب متغايرة من الإنشاء، فمن الجزل الرائق العذب إلى المضطرب المعقد. وبينما نجده آونة يعني بالتافه من الشيء يصفه ويطنب في وصفه؛ وإذ هو صامت أمام ما تتلهف النفس إلى شرحه وإيضاحه كرحلته الأندلسية، ذلك بأنه كان يكتب من نوازع اليأس، والرجاء، والخوف، والأمن، والحزن، والجزل، ما نلمسه في تصانيف الكتاب جميعًا.

ولنورد الآن طرفًا من العبارات والكلمات الغريبة في أسلوب رحلته:

كاغد: هذه كلمة فارسية محضة بمعنى القرطاس.

أريضة: وتوصف البلاد بأنها أريضة؛ أي زكية، معجبة، خليقة الخير.

الخوانق: وأحدثها خانقة؛ وهي أمكنة يتعبد بها الصوفيون.

البراني: لفظة قبطية معناها المعبد أو الهيكل.

إسطوان: إسطوان الدار أي البهو.

أفيح: متسع.

ياخوند: يا سيدي.

الأوخى: جمع أخيه؛ أي عود في حائط.

القوصرة: وعاء للتمر.

الطيفور: وعاء للطعام.

مشور: كلمة أعجمية يراد بها مجلس السلطان.

التلاليس: لعلَّه جمع يليسة؛ وهي هنة تسوى من الخوص، وتطلق على الجوالق والزكائب في الصعيد.

العمالة: أجر العامل.

الجنادرة: جمع جندار وهو حارس ذات الملك.

الجوجور: يقول ابن بطوطة أنه نوع من الذرة، والغالب أن اللفظ غير عربي بهذا المعنى.

الصنايق: القوارب الصغيرة. واللفظ بهذا المعنى غير عربي.

العنبا: هو مثل التفاح، والمراد المنجو وهي كلمة غير عربية.

ركوة: وعاء للماء.

الشقاشق: قال طيور تشبه الشقاشق، وبالبحث لم أعرف معناها.

ويستعمل ابن بطوطة (خالف) بمعنى خرج؛ وهذا غير فصيح.

النول: كلمة يونانية الأصل ومعناها ما يدفعه المسافر في المركب

من الأجرة، وهو ما يسميه عامتنا (بالنالون).

الطارمة: مكان في السفينة تحت السكان في لغة الملاحين، وفي المختار الطرمة بيت من خشب فارسي معرب.

الملف: هو ما يسمى بالجوخ عندنا، والكلمة بهذا المعنى غير عربية.

القمر: مشروب (غير عربي).

الاصقالات: يقصد خشبات تصل بين المراكب، وهو غير عربي.

الجراديق: جمع جردقة وهو الرغيف (معرب).

القسطل: هو ما يسمى عندنا أبا فروة.

الطبرزين: آلة كالساطور (غير عربية).

ويستعمل كلمة مطبخة والصحيح مطبخ.

السنداس: المرحاض (غير عربي).

الرتب: يريد بها المكوس (غير عربي).

هذا طرف من غريب الكلمات التي استعملها ابن بطوطة في رحلته: منها اليوناني، ومنها الفارسي، ومنها الأعجمي. ويبدو أن ابن بطوطة قد تأثر في ذلك كله بما صادفه وحاكاه من ألسنة قوم مختلفين، وهو في ذلك لا ضير عليه، فإن ظروف حياته كرحالة في عصر جل ما يعتمد فيه الإنسان على الذاكرة تُحتِّم عليه أن يقول ويملي بأسلوب كهذا وعبارات كتلك.

٨– قيمة الرحلة وأثرها في تقدم علم الجغرافيا: إذا أردنا أن نقوِّم رحلة ابن بطوطة وننصف صاحبها، فلن نضعه بين الجوَّابين في العصر الحاضر من العلماء والمفكرين الذين تقوم دراساتهم على العلم وصدق الاستنباط، فإن ابن بطوطة كان وصّافًا ساذجًا، ولكنه كان دقيقًا، حيث لم يترك شيئًا مر به إلا ووصفه.

فلم يترك ابن بطوطة بلدًا نزل به إلا وتحدث عن أهلها، وسلطانها، وعلمائها، وبذلك كانت رحلته معرضًا كبيرًا لحياة الأمم والأقاليم التي نزل بها من الوجهتين السياسية والاجتماعية، بالإضافة إلى الناحية الجغرافية، وبالإضافة أيضًا إلى ما في الرحلة من أخبار طريفة، وحكايات نادرة، وعجائب مخلوقات في الحيوان والإنسان.. وكان لذلك أثره الواضح في تقدم علم الجغرافيا ونمو الثروة الأدبية لدى المتأدبين. وحسب الكتاب أن يشهد بفضله على العلم والأدب الرحالة الشهير (سيتزن) فيقول ما معناه:

«أي سائح أوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمان ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكبير من البلدان السحيقة، وتحمّل من مشاق الأسفار ما يحمله بصبر، وثبات، وشجاعة.. بل أي أمة أوربية كان يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة والدقة في الكتابة ما لهذا الرحالة العظيم؟.. وأن ما جاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات أفريقيا المجهولة لا يقل في فائدته عن

معلومات (لاون) الإفريقي. أما جغرافية بلاد العرب، وبخاري، وكابول، وقندهار فقد استفادت من الرحلة كثيرًا، وفيما كتبه عن الهند وجزيرة سرنديب من المعلومات المفيدة ما يدعو إنجلترا والهند إلى قراءته، فإن فيه ما يفيدهم في سياستهم».

كما يمتاز هذا الرحالة بأمور كثيرة، فلما اجتمعت لأحد من معاصريه؛ حيث تقدر المسافة التي قطعها ابن بطوطة في أسفاره بنحو ١٢٠٠٠٠كيلو متر.. مع ملاحظة أنه تعود إلا يقطع طريقًا مرتين، ونجح في ذلك إلا فيما ندر كما لا يعرف تاريخ الرحلات من اجتاز مثل هذه المسافة قبل العصور الحديثة.. ومن هنا نقول في صراحة.. إن ابن بطوطة رحالة محترف.

٩- الكتاب ورحلة ابن بطوطة: الإفرنج: لقد بحث كثير من الإفرنج عن نسخ الرحلة الأصلية، فعثر السائح (يوركهاردن) على مختصر لها، فظهرت به قيمة هذا المؤلف العظيم، وجاء بعده «كوسفارتن» وترجم إلى اللاتينية أسفار ابن بطوطة إلى بلاد أفريقيا، وفارس، وبلاد التتر والجزائر ونشرها سنة١٨٨١م. ثم ترجم القس «صموئيل لي» قسمًا كبيرًا منها إلى الإنجليزية وطبعه في لندن سنة ١٨٢٩م، وبعد ذلك قام العالمان الفرنسيان (دي سلان)، والعالم (إدوارد ديلوريه) فترجم كل منهما قسمًا من الرحلة نشر في المجلة الأسيوية سنة ١٨٤٣، سنة١٨٤٧م، وعثر البعض على نسخ من الكتاب كاملة فطبع مع ترجمة إلى الفرنسية في باريس سنة ١٩٥٣م، سنة ١٨٥٩ في مجلدات أربعة

بتحقيق العالمين المستشرقين (دفريمزي) **Defiemery**، سانجوينتي **Senguineti**). وبعد هذا طبعت الرحلة في القاهرة طبعتين عربيتين عن الطبعة الباريسية في مجلدين الأولى ١٨١٧– ١٨٧٥، والثانية ١٩٠٤م، ثم طبعت في خامبورج مترجمة إلى اللغة الألمانية ١٩١١– ١٩١٢م طبعها المستشرق (مزيك). وللرحلة ترجمة تركية اسمها (تقويم ووقائع)، ونشر الأستاذ **Gibb** ملخصًا للرحلة بالإنجليزية في سلسلة: **Broadway Traveueesr** عام ١٩٢٩.

العرب: بالطبع لم تكن هناك كتابة قديمة عن ابن بطوطة ترجع مثلًا إلى ما بعد عصره بقرن مثلًا أو قرنين، ما عدا إشارات لم تشف الغليل كما عند ابن خلدون في مقدمته مثلًا، أما الآن فقد كتب عند عديد من الكتاب العرب؛ فقد كتب عنه الدكتور زكي محمد حسن كتابة تختص بدراسة رحلته وتلخيصها؛ وذلك في كتابه القيم المسمى «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى». ولم يكن الكتاب خاصًا بابن بطوطة، وإنما ضم رحالة كثيرين كان رحالتنا أحدهم.

كتب عنه كذلك الدكتور نقولا زيادة في كتابه (الرحالة العرب)، كذلك الدكتور شوقي ضيف في كتابه (الرحلات)، وكتب عنه الدكتور أحمد العدوي: أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية دار العلوم كتابًا يختص بدراسة جانب من حياته وهو وجوده في العالم الإسلامي وحديثه عنه.. كما كانت هناك دراسة على هيئة اقتباسات من رحلته كماضي كتاب «ابن بطوطة في بلاد الهند»، وكان من اقتباس «فدوى التميمي».

بهذا نقول: أن الجل قد أخذ حقه من الكتاب الإفرنج والعرب ولم يهمله أحد، فقد تناوله الكثيرون بالدراسة، فإن أهميته هي التي استدعتهم إلى مثل هذه الكتابة، ولو كان خرافيًا في أخباره أو كاذبًا في وصوله إلى الصين لما نال هذا التقدير وهذا الاهتمام.

الباب الثالث

المجتمع الإسلامي وكيف صوره ابن بطوطة

وهنا سوف نسرد الصفات التي جعلها ابن بطوطة صورة للمجتمع الإسلامي في عصره، وبطبيعة الحال لن يكون ذلك إلا للمدن والبلاد التي استقر بها ابن بطوطة مدة زمنية فيستطيع أن يدرس أحوال البلد الذي يعيش به من اجتماع، وسياسة، واقتصاد، وعلم، ولن يكون ذلك إلا على المبدأ الذي بدأنا به البحث وهو الوقوف على قمم الأحداث دون التعرض للجزئيات التي لا يتسع لذكرها بحث موجز كهذا. ولنبدأ بالكلام عن:

١- حديثه عن الحضارة الإسلامية والعربية:

وكما يقولون في الأمثال (لم يسعد الحال فلم يسعد النطق) فإن حديث ابن بطوطة عن الحضارة العربية والإسلامية يبدو قليلًا في صفحات ابن بطوطة، وذلك لوقوف حضارة العرب والإسلام في ذلك الوقت بالنسبة للجمود الرسمي الذي فرضته الدولة على العقل، وقد يقال إنه لم يتصل إلا بفئة العلماء مثله. ولكنا نرد قائلين: إنه كان يقظ الذهن، مفتوح العين، فلو وقع من ذلك شيء لصرح به أو لم يسكت عن الحديث عنه؛ ولكن لم يسعد الحال فلم يسعد النطق. ونستطيع القول أن ابن بطوطة كان يشير قليلًا إلى لمحات حضارية كحديثه عن بغداد ودمشق، فقد أخذت دمشق بلب ابن بطوطة حتى قال: «إنها جنة

المشرق وعروس المدن، تحدق بها البساتين أحداق الهالة بالقمر». وكان يتحدث عن حلقات التدريس في جامع بني أمية وكيف تُدرَّس بها فنون العلوم.. إلى آخر حديثه عن أمثال هذه الأمور، ولكن كان من قبيل اللفتات الملمِّحة.

٢- حديثة عن المجتمع الإسلامي وتصويره:

١– في تونس وافاه عيد الفطر المبارك، فحضر الصلاة ورأى المسلمين وقد عمرت قلوبهم بالإيمان، ورأى من عادات المجتمع الإسلامي في تونس ما يطمئنه على قوة الروح الإسلامية في تلك البقعة؛ حيث وافى السلطان أبو يحيى راكبًا بين أقاربه وبلاطه الخاص به، وسار هذا الحشد الكبير حتى وصل المسجد ثم أدّوا الصلاة وانصرف الناس إلى منازلهم. وفي طرابلس رأى من العادات ما يوافق عادات مجتمعنا الحاضر؛ وذلك حينما تزوج ابن بطوطة بنتًا لبعض طلبة فأس، وبني بها بقصر الزعافية، واجتمع أصحاب ابن بطوطة وأهل العروس في حفل رائع وأولمت وليمة.

٢– يوم الركبة: وفي مصر ينزل شمس الدين الإسكندرية ويقابل الكثير من علمائها ويقول: إن علماء الزهاد بالإسكندرية لا يحصى لهم عدد، وإن زوايا الصالحين منبثة في كل مكان، لا أنزل عند أحدهم إلا ويكون الإكرام حليفي. ويظل في سيره حتى يصل بلدة أبيار ويلتقي فيها بالقاضي «عز الدين المليحي الشافعي»، ثم يحضر عنده يوم الركبة.. وهم يسمعون ذلك يوم ارتقاب هلال شهر رمضان، وعاداتهم فيه: أن

يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي، ويقف على الباب «نقيب المتعممين» وهو ذو شارة وهيئة حسنةن فإذا أتى أحد تلقاه النقيب ومشى بين يديه قائلًا:

(باسم الله سيدنا فلان الدين)، فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويختار له النقيب مكانًا يجلس به، وعندما يتكامل ركب القاضي يخرجون معه إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالفرش والبسط، وينزل القاضي ومن معه فينتظرون الهلال ويعودون للمدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع، والمشاعل، والفوانيس ابتهاجًا بقدوم شهر مبارك عزيز على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ثم ينصرف كل لداره وهكذا يفعلون في كل عام.

٣- سورها حلوى وكلابها غنم:

هكذا يقال في دمياط «سورها حلوى وكلابها غنم» ولكن لماذا؟ إن أهلها يشربون الماء بالدلاء، وبيوتهم تقع كلها على النيل، وأغلب دورهم تصل للنيل بدركات، وينتشر بها شجر الموز، وتكثر الأغنام بها لدرجة أنها تسير هملًا بالليل والنهار؛ ولذلك قيل فيها هذا المثل. ومن عادة تلك المدينة أنه إذا دخلها أحد لا يستطيع الخروج منها إلا بطابع الوالي، أما الممتازون من الناس فيُطبع لهم تصريح بالخروج في كاغد (قرطاس) وذلك ليراه حراس أبواب المدينة، ثم يذكر ابن بطوطة أنه شاهد بدمياط الطائفة المعروفة باسم « لقرندرية» التي يَحلِق مريدها

لحاهم وحواجبهم أسوة برئيسهم « مال الدين الساوي».

٤ -رعاية الفقراء:

لقد قويت الروح الإسلامية في مصر على عهد ابن بطوطة، فبنيت المساجد كمسجد عمرو بن العاص، ثم المارستانات كالتي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، وكان يوجد في مصر عدد لا بأس به من الزوايا، ويتسابق ذوو القلوب الطيبة في بنائها، وكل زاوية بمصر معينة بطائفة من الفقراء، أما غالبية الفقراء آنذاك فكانوا من الأعاجم وهم أهل أدب وعلم بطريقة التصوف الإسلامي، ولكل زاوية شيخ وحارس، ولننظر معًا العجيب من تصريف أمورهم:

يذهب خادم الزاوية للفقراء صباحًا، ثم يعرف ما يشتهيه كل من الطعام ويكتب ذلك في قرطاس معه، فإذا اجتمعوا أثناء تناول الطعام جعلوا لكل واحد طعامه على حدة، والأكل مرتان في اليوم، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف وراتب شهري قدره ثلاثون درهما، ولهم تحليه من السكر كل يوم جمعة، ولهم الصابون والزيت. وللمتزوجين زوايا على حدة، ويشترط حضور الصلوات الخمس، ويجلس كل واحد منهم على سجادة خاصة به، ثم يؤتي بعد ذلك بنسخ القرآن ويقرأون، ومن عاداتهم مع القادم أن يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وبيمناه عكاز، وبيسراه الإبريق، ويُعلِمه خادم الزاوية بمكانه، ويسأله عن بلده وبأي الزوايا ينزل.. فإذا علم صحة قوله أدخله الزاوية، وفي يوم الجمعة يأخذ الخادم سجاجيدهم إلى الصلاة في المسجد،

وبعد الفراغ منها وقراءة القرآن يعود للزاوية.. ويذكر ابن بطوطة بعد ذلك قرافة مصر ومزاراتها ومشايخها المتعددين كالإمام الشافعي محمد ابن إدريس.

٥- يوم المحمل بمصر:

وبعد أن حدثنا ابن بطوطة عن النيل وسيره على عكس الأنهار كلها من الجنوب للشمال، وأنه أحد الأنهار الخمسة الوحيدة وهي: النيل، والفرات، والدجلة، وسيحون، وجيحون. ثم يتحدث عن الأهرام، والبراني، والسلطان، والعلماء، والقضاة. بعد هذا كله يذكر لنا عادة اجتماعية تنم عن روح إسلامية كبيرة (دوران الجمل: وهو يوم مشهود. وكان ترتيبهم فيه هكذا: يركب القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال، والمحتسب، ويركب معهم أعلام الفقهاء، وأمناء الرؤساء، وأرباب الدولة، ويقصدون جميعًا باب القلعة (دار الملك الناصر)، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة، ومعه عسكره والسقاءون على جمالهم، ويجتمع لذلك المسلمون رجالًا ونساءً، ويطوف الكل بمدينة القاهرة، والحداة يحدون أمامهم ويكون ذلك في رجب، وعند ذلك تقوى عزمات القلوب لدى المسلمين، وتهيج لواعج الشوق، وتنبعث البواعث متحركة، ويُلقي –الله تعالى– العزيمة على الحج في قلوب من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد.. بهذا نعلم أن مصر منذ قديم الزمان هي التي كانت تقيم شعائر الحج على أحسن وجه، ولاسيما في هذا المظهر الجميل الذي

ينم عما كان عليه المصريون آنذاك –ولا زالوا– من روح إسلامية طاهرة.

٦- **البجاة:** أولئك قوم يسكنون عيذاب بصعيد مصر، وهم سود يلتحفون ملاحف صفراء، ويشدون على رؤوسهم عصائب عرض الواحدة أصبعا، وهم لا يورثون البنات، وطعامهم ألبان الإبل، ويمتطون ظهور المهاري ويسمونها «الصهب».

٧- **البراءة:** وفي طريقه إلى الشام دخل بلدة (الرحال) ونزل منازلها، فوجد بكل منها فندقًا يسمونه «الخان» ينزل المسافرون فيه بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته. ومن هذه المنازل «قطيعًا» وهي بلدة شهيرة، ويدور بها البحث في أمتعة التجار، كما تجبي منهم الزكاة، وفيها الدواوين، والعمال، والكتاب، ولا يعبر منها أحد إلى الشام إلا ببراءة (أي تصريح) من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام؛ وذلك حفاظًا على أموال القوم وتوقيًا من الجواسيس «وطريقها في ضمان من العرب، وقد وكلوا بحفظه، فإذا كان الليل مسحوا على الرمال حتى لا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير صباحًا فينظر إلى الرمل، فإذا وجد به أثرًا طلب العرب بإحضار مؤثره، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء».

٨- **مودة وإخاء:** وصور لنا ابن بطوطة الروح السامية ذات المودة والإخاء بين مسلمي ومسيحيي الشام حيث قال: إن هناك ديرًا خارج اللاذقية من أعظم أديرة الشام ومصر، يسكنه الرهبان ويقصده النصارى،

وكل من ينزل به من المسلمين يلقى عظيم الضيافة وحسن المقابلة.. أما طعامهم فهو الخبز، والجبن، والزيتون.

٩- الروح الإسلامية في دمشق الشام:

ودلل ابن بطوطة على علو الروح الإسلامية بدمشق (عروس المدن) بمشاهدة جامعها الشهير المعروف بجامع بني أمية، وكيف يكون اجتماع القرّاء والمحدثين به؟ وفي ركنه الشرقي توجد خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي بعثه أمير المؤمنين عثمان ابن عفان إلى الشام، وتفتح هذه الخزانة كل يوم جمعة، فيتزاحم المسلمون إليها للثم المصحف الشريف.. ويقول ابن بطوطة: إن الحياة في دمشق متركزة حول هذا المسجد، وذكر أن له أربعة أبواب، كل واحد يطل على مرفق هام من مرافق المدينة، أما الأبواب فملونة من الداخل باللون الأخضر، وظاهرها من الخارج اللون الأصفر، هذا في النهار. أما فيحدث العكس: الأصفر بالداخل والأخضر بالخارج، وبالقرب منه الحوانيت، وسوق الوراقين الذي تباع به أدوات الكتابة من الورق والأقلام والمداد، وبجانب الجدار الجنوبي للمسجد سوق آخر كان موضع قصر معاوية بهذا المسجد.. أما طريقة تعليم الصبيان فتخالف ما نحن عليه الآن.. حيث إنها تبدأ بتحفظيهم القرآن دون كتابة ينزلها له.. ويتولى مدرس الخط تعليم الأولاد بعد ذلك الكتابة والأشعار.. فكان تعليم الصبي عندهم يبدأ بالقراءة ثم الكتابة.

ومن عادات الحياة في دمشق أن أهلها لا يعملون يوم السبت،

ويخرجون للمتنزهات، والأنهار، ودوحات الأشجار. كما أن أهلها محبون لعمل الخير، ويوقفون الأوقاف الكثيرة على مختلف الشؤون الاجتماعية؛ ومنها الأوقاف للعاجزين عن الحج، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، ومنها أوقاف على فك الأسرى، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها.. إلخ.

١٠- الأراضي المقدسة:

ويحدثنا ابن بطوطة أن في تبوك عين ماء نزل عندها الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوته المعروفة باسم هذه المدينة.. وهنا استراح ابن بطوطة أربعة أيام، وأروى الجمال. ويجتمع السقاؤون على جوانب هذه العين ولهم للسقي أحواض صنعت من جلود الجواميس، ولها من الضخامة ما يسع لسقي الجمال، وأفعام الروايا والغرب ويقول:

لكل أمير وكبير حوض كبير يسقي منه جماله وجمال أصحابه، ويملأ رواياهم، وسواهم من الناس يتفق مع السقائين الذين في طريقهم بئر الجمر المعروف بحجر ثمود، وكذلك ديار ثمود المنحوتة في الصخر الأحمر.. وبعد اجتيازه قرية العلا ووصفها يصل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يبين أن الروح الإسلامية القوية ربطت المسلمين في مختلف الأصقاع؛ حيث ترعى مصر المدن المقدسة وتزودها بالعلماء والمال، وأن سدنة المسجد وخدامه أحابيش على قدر كبير من الجمال والنظافة، وزعيمهم يعرف بشيخ الخدام، ولهم المرتبات بديار مصر والشام، ويؤتي الفاضل الإمام المحدث جمال الدين المطري، من

المطرية (وهي قرية بمصر). وفي هذا المسجد يجتمع المسلمون، ويوقدون الشموع، ويذكرون الله.

أما مكة فهي في بطن وادٍ تحف به الجبال، لا يراها قاصدها إلا بوصوله إليها.. وثمراتها كثيرة. وبعد أن يقدم لنا صورة لشعائر الحج الدينية يذكر لنا طرفًا عن الحياة الاجتماعية بمكة، فيبين أن أهلها قد تحلوا بمكارم الأخلاق وحسن العادات، ولهم من المبالغة في إكرام الوافد الغريب والمنقطع للعبادة والفقير ما يثير العجب العجاب، وإذا أقام أحدهم وليمة بدأ فيها بإطعام الفقراء، والتلطف في دعوتهم، والإحسان إليهم. ويذكر أن أكثر المحتاجين يقيمون بالأفران، فإذا انتهى ما قسم له: ولو كانت خبزة واحدة، فإنه يعطي ثلثها أو نصفها. ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام والصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة «كتلا»، ويأتي الرجل من أهل مكة للسوق ويشتري حاجياته فيوصلها الصبي لمنزله بالقفة ويأخذ أجره نقودًا.. وأعجب ابن بطوطة بأهل مكة الذين يرتدون الأبيض من الثياب، ويكتحلون، ويكثرون السواك بعود الأراك الأخضر. وعلل ابن بطوطة حسن صحتهم بأنهم لا يأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون على هذه الأكلة.. ومن أراد الأكل في سوى ذلك أكل التمر. ثم تحدث عن نساء مكة، وأن الإيمان يعمر قلوبهن، ويقصدون الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة (فيأتين في زى حسن، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقًا).

١١- مشهد علي بن أبي طالب:

وهنا نجد أنفسنا في العراق، حيث هذا المشهد وهو من أبهى مدن العراق بأرض النجف، وهي عامرة بالأسواق والعلماء، بها مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة، ويضاف بها كل وارد عليها مدة ثلاثة أيام يتناول فيها الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم.. وغالبية سكان المدينة من غلاة الشيعة: الذي يتولى تسيير أمورهم رجل يعرف «بنقيب الأشراف»، وله مطلق الحرية في إدارة دفة المدينة، أما عن تعيينه فمن قبل الحكومة المركزية ببغداد.

١٢- مدينة القرآن والصلاح:

هي مدينة واسط من أشهر المدن عناية بحفظ القرآن الكريم، وتلاوته، وقراءته القراءة الصحيحة. وتأتي الوفود العراقية لتتلقى العلم من أهلها. وشاهد ابن بطوطة بها مدرسة عظيمة لتعليم القرآن بها ثلاثمائة خلوة، وينزلها غرباء البلاد الذين يبغون العلم. هذا بالإضافة إلى كرم علمائها حيث أضاف رئيس الخلوة الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي ابن بطوطة وزوده بالطعام والمال. ثم يعرج ابن بطوطة على قبر أحمد الرفاعي لزيارته بواسط بقرية معروفة باسم «أم عبيدة»، ويقول في قصته عن عاداتهم هناك: حينما وصل حفيد أحمد الرفاعي: «الشيخ أحمد قوجك» وبعد انقضاء صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف، وأخذ الفقراء في الرقص، وبعد الأكل وصلاة المغرب والعشاء أخذوا في الذكر والشيخ أحمد جالس على سجادة جده الشيخ الرفاعي، وشاهدهم

وقد أعدوا فيها ومنهم من أكلها بفمه، على حين شاهد غيرهم يأخذ الحية العظيمة ويعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه. وهنا نجد ابن بطوطة يصف هؤلاء القوم وكأنه يعيش بينهم منذ ولادته، ويكفي مطابقة هذا الوصف لما يوجد لدينا الآن في قرى مصر ردًا على من يزعمون أن ابن بطوطة يأتي بما لم يحدث.

١٣- مشهد صاحب الزمان:

والمجتمع الإسلامي بمدينة (الحلة) القريبة من الكوفة من طائفة الأمامية الاثنى عشرية وهي من طوائف الشيعة، وبالقرب من سوق «الحلة» مسجد على بابه ستر من حرير مسدول يسميه أهالي المدينة «مشهد صاحب الزمان»، وفي اعتقادهم أن إمامهم محمد بن الحسن العسكري دخل المسجد وغاب فيه، وأنه سيخرج منه، وأنه الإمام المنتظر. وقال ابن بطوطة في وصف عاداتهم: «من عاداتهم أنه يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهالي المدينة عليهم السلاح، وبأيديهم سيوف مشهورة، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسًا ملجمًا أو بغلة كذلك، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها، ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله يا صاحب الزمان.. باسم الله اخرج.. قد ظهر الفساد وكثر الظلم.. وهكذا أوان خروجك.. فيفرق الله بك بين الحق والباطل، ولا يزالون كذلك وهم يضربون بالأبواق والطبول والأنفار إلى صلاة المغرب».

١٤- **بغداد الزائلة:** وبعد أن مر على كربلاء التي استشهد فيها الحسين رضي الله عنه ووصفها بأنها تَحِفُّ بها حدائق النخل، وتسقى من نهر الفرات، أخذ في وصف بغداد. وكان قد وصل إليها زوال عظمتها بسبب تدمير هولاكو المغولي لها سنة ٦٥٦هـ، فرأى الجانب الغربي منها مشوهًا بالخراب، على حين احتفظ الجانب الشرقي بشيء من العمران، ورأى من أحسن أسواق الجانب الشرقي «سوق العجيبة» حيث أن كل صناعة به لها مكان مخصوص.. ووجد هناك «المدرسة المسنتصرية»: وهي في أحد جوانب سوق العجيبة، وتقوم بتدريس المذاهب الأربعة؛ وقد خُصِّص لكل مذهب مكان مخصوص، ويجلس الشيخ في مكانه على قبة صغيرة من خشب، وتوضع على كرسي مغطى بالبسط، ويجلس الشيخ وعليه السكينة والوقار، ويرتدي ثيابًا سوداء، وعن يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وبالمدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء. وقد احتفظ أهل بغداد بمرحهم وتمتعهم بنعيم الحياة، فكانوا يخرجون للتمتع في المتنزهات كل ليلة، ويخرجون يوم الجمعة لزيارة شيخ من الأولياء حفاظًا على الروح الإسلامية الطيبة، ثم يقدم لنا صورة لصاحب الأمر على العراق «أبو سعيد بن درخان» الذي أعجب ابن بطوطة بحاشيته وموكبه، وكيف تضرب الطبول وتصطف الصفوف لاستقباله.. وإذا غاب أحد من الجنود المعدين لذلك عن ركب الاستقبال أخذه وعلق في رقبته كيس مملوء بالرمل، ويصل على قدميه لدار الأمير وينبطح على الأرض ويضرب خمسًا وعشرين مقرعة. ثم يجول ابن بطوطة بعد ذلك جولات في مدن العراق يشاهد في أنقائها آبار البترول الواقعة بالقرب من مدينة تكريت.

(١٥) المجتمع اليمني:

وبالبحر وصل ابن بطوطة مدينة «زبيد» أبهى مدن اليمن وأغناها. أهلها يمتازون باللطف وحسن الأخلاق وكرم الشمائل، ونساؤها ذوات حسن فائق (ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة؛ وذلك أنهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات).

ومن تقاليد نساء هذه المدينة أن يخرجن ممتطيات الجمال في محاملها مع جمالهن الفائق كما وصفناه، وللغريب مكانة عندهن ترضي الواحدة منهن بتزوجه دون إباء؛ وذلك على النقيض مما عليه نساء بلادنا، وحينما يعزم الغريب المتزوج على السفر تخرج معه، وفي مفترق الطريق تودعه أحسن وداع وتكفل الولد -إن أنجبا- وتقوم بجميع لوازمه حتى يعود أبوه. هذا بالإضافة إلى أنها لا تطالبه أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة، ولكن العجيب أنها لا ترضى أن تغادر بلدها ولو أُعطِيت ملء الأرض ذهبًا. أما حاضرة ملك اليمن «تعز» فوجدها ثلاثة أحياء.. الأول: يسكنه السلطان وحاشيته. والثاني: يسكنه الأمراء والجند. الأخير: يقيم به عامة الناس. وبها سوق يسمونها المحالب، واسترعى نظر ابن بطوطة في المجتمع اليمني طريقة جلوس ملكها، وكيف تظهر في مجلس الملك ظاهرة الطبقية التي تجافي روح الإسلام: يجلس الملك فوق مقعد مزين بثياب الحرير، وحراس السلاح عن يمينه ويساره، ويليهم بالتدريج

أصحاب السيوف والدرق فأصحاب القسي، والحاجب بين يدي هؤلاء في (الميمنة والميسرة) وأرباب الدولة، وكاتم السر، وأمير جندار (حارس الملك) على رأسه، والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد، فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة: بسم الله، فإذا قام فعلوا مثل ذلك، فيعلم جميع من بالمجلس وقت قيامه وقعوده، ويقدم الطعام حسب الطبقات: طعام للعامة، وآخر للخاصة، ويأكل من الطعام الخاص السلطان، وقاضي القضاة، ووجوه الأجناس والناس.

كما لاحظ ابن بطوطة كثرة نزول الأمطار بصنعاء في الصيف، وأن عدن ميناء بلاد اليمن العظيم ومن أهم المرافئ بها. وذكر أن مدينة «ظفار الحموض» هي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي، ولها سوق من أقذر الأسواق وأشدها نتنًا لكثرة ما يباع فيه من الثمرات والسمك، ومن العجائب أن دوابهم تعلف من هذا السردين، ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير، ولا تنفق في سواها، وهم أهل تجارة ولا عيش لهم إلا من التجارة.

أما مدينة «زيلغ» فأهلها طائفة من السودان، شافعية المذهب، وهم سود الألوان، وأكثرهم رافضة، وهي كسابقتها في ازدياد نتنها لكثرة السمك بها.

ومن عادة أهل هذه البلاد أنه إذا وصل مركب إلى المرسى تصعد القوارب إليه محملة بالطعام وتقدمه للتجار، وفي كل قارب شاب، ويختار التاجر ما يعجبه من الشبان لينزل عنده.

ومن عادة الناس في مقدشو أنهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها موالح ومخللات، وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن: يضع سبابته في الأرض، ثم يجعلها فوق رأسه ويقول: «أدام الله عزك».

(١٦) **الضيافة الصومالية في مقدشو:** العادة في مقدشو ألا ينزل الفقيه أو الشريف الوافد إلى هذه البلاد عند أحد إلا بعد مقابلة السلطان؛ ولذلك يقول ابن بطوطة: إن هذه العادة قد أصابني الدور فيها، فعندما وصلت مقدشو اصطحبني القاضي إلى سلطان مقدشو، وأخبر السلطان أني قد وصلت من أرض الحجاز؛ فبعث السلطان إلى القاضي بطبق يحتوي على أوراق التنبول (طعم هذا الورق يشبه القرنفل)، والفوفل (نوع من النخل له ثمر كالتمر) ثم يأخذ ابن بطوطة من هذا الطبق عشر أوراق، وينال القاضي منها شيء. أما العادة الخاصة بتقديم ورق التنبول فقال عنها ابن بطوطة: إن التنبول شجر ورقه الذي يقدم منه رب البيت للضيوف، فإذا أعطاه خمس ورقات منها فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها، يأخذ الضيف ورق التنبول ويمضغها مع الفوفل مما يجعل نكهة الفم طيبة، ويزيل ما به من رائحة كريهة، ويساعد على الهضم، ويتناولون هذا المزيج في بلاد الصومال عادة في الصباح ليجددوا به نشاطهم.. ومن الطعام الذي قدم لابن بطوطة في دار الطلبة: أرز مطبوخ بالسمن، وموز مطبوخ قبل نضجه في اللبن الحليب.

ولاحظ ابن بطوطة إفراط هؤلاء السكان في الأكل وضخامة أجسامهم، وملابس عظمائهم من الثياب المصرية الصنعة، وكسوتهم

فوطة عوض عنها.. ويلبسون دراعة من المقطع المصري معلمة، وفرجية من القدسي المبطن، وعمامة مصرية معلمة.

(١٧) الأخيات:

يقال: إن الفروسية والفتوة شعار الأتراك العثمانيين الذين يسكنون أرض الحظ والحب (آسيا الصغرى). وقد وضع مؤسسو الدولة العثمانية البذور التي شاهد ابن بطوطة أوان نبتها، لاسيما حرصهم على نشر الإسلام بآسيا الصغرى. ونجم عن مجهودات الزعماء العثمانيين انتشار التصوف وتعدد الطرق المعروفة باسم (الدراويش).. ثم يتطور هذا النظام حتى يأخذ مظهرًا جديدًا واسمًا آخر جديدًا هو: «الأخيات»؛ وهي تسمية مشتقة من كلمة أخي، ونظام الأخيات أشبه بنظام النقابات الاقتصادية، وعُرف أفرادها بالشهامة والمبالغة في إكرام الضيف، ولقي ابن بطوطة منهم كرمًا وحفاوة. ولاحظ ابن بطوطة انتشار نظام جماعات الأخيات بسائر مدن الأناضول وقراه، ويدعى رئيسهم بـ «الأخي». وكانت تضم هذه الجماعات الشباب الأعزاب أبناء الطائفة الواحدة أو القرية الواحدة، ويقدمون عليهم رئيسًا لهم ويتعاونون على البر وإكرام الضيف والغريب، أما وصف ابن بطوطة لهذا النظام فكان جيدًا، حيث أبدى ما اتصفوا به من شهامة فضلًا عن إشادته بالترحيب الذي ناله عندهم؛ قال: «إنه لا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالًا بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج، والأخذ على أيدي الظلمة. والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشباب

الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم، ويبني زاوية ويجعل إليه فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات، ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية، فإن ورد في ذلك العصر مسافر على البلد أنزلوه، وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو، وأتوا بعد العصر مقرهم بما اجتمع لهم).

واجتمع ابن بطوطة بجماعة الأخيات كثيرًا، ولقي منهم كرمًا، ورأى في اجتماعاتهم ما يسمى بالخارجي ويدعى البيسوس؛ وهو أشبه بمنارة من النحاس له أرجل ثلاث، وعلى رأسه شبه غطاء من نحاس، وفي وسطه أنبوب للفتيلة، ويُملأ من الشحم المذاب، وإلى جانبه آنية من نحاس ملآنة بالشحم وفيها مقراص لإصلاح الفتيل، وأحد جماعة الأخيات موكل بالخراجي.

ولباس هؤلاء (الأقبية)، وفي أرجلهم الأخفاف، وكل واحد منهم محترم، وعلى رؤوسهم قلانس من الصوف، وفي المجلس ينزع كل واحد منهم قلنسوته ويضعها بين يديه. وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين، ويبلغ من كرم هذه الجماعة أنهم كانوا يقيمون القرعة لأخذ الضيوف عندهم.

كما ذكر ابن بطوطة إلى جانب هذه الجماعة المتحلية بمكارم الأخلاق يوجد أناس آخرون يدَّعون الدين وليس لديهم منه ذرة؛ قال:

أحد الذاهبين من هؤلاء معنا إلى قسطمونة أكرمناه، وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيسرق منها، وكنا نقول له آخر النهار: كم سرقت اليوم من النفقة؟».. فيقول كذا.. نضحك منه ونرضى عنه.

(١٨) المجتمع الإسلامي في بلاد المغول:

سبق رحلة ابن بطوطة إلى بلاد المغول أحداث جسام نزلت ببلاد المسلمين على أيدي أولئك الناس، وبدا أنهم قوم عتاه لا يبالون بنظم الحضارة ولا بأساليب المدنية، غير أن الإسلام سريعًا ما غزا المغول وجعل منهم أناسًا لهم رسالتهم في سلم الحضارة العالمية. وهنا يقدم لنا ابن بطوطة صورة لما شاهده من آثار إغارات المغول على بلاد المسلمين، ثم ما طرأ عليهم من حياة جديدة في ظل الإسلام، نكتفي منها بذكر الآتي:

كانت وسيلة انتقال ابن بطوطة بين مدن المغول والبلاد التابعة لها باستخدام العجلات. فذكر أنهم (يسمون العجلة «عربة» وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار، ومنها ما يجره فرسان، ومنها ما يجره أكثر من ذلك، وتجرها أيضًا البقر والجمال. وهناك عربات خاصة تحمل المتاع والأزواد وعليها أقفال لحفظ ما بها). والعادة في هذه البلاد عند استقبال الضيوف شبيهة بغيرها في بلاد الإسلام الأخرى، وشاهد ابن بطوطة بمقابلة خان المغول (محمد أوزبك) وكان على دين الإسلام، ويعمل على نشر رأيته في البلاد التابعة لمدينة القسطنطينية، وشاهد على كتب حياة هذا السلطان الخاصة وما فيها من مباهج؛ فذكر

أنه يصطحب معه نساءه وكبار رجال دولته، وتسمى زوجته «الخاتون»، ونسوته جميعًا بالخواتين.

وإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن بعث إليها يعلمها بذلك فتتهيأ له، وتنصب له قبة ذهبية يوم الجمعة، ومعه نساؤه لاستقبال رعاياه ودراسة مشاكلهم. وأعجب ابن بطوطة بنظام الحياة التي سارت عليها زوجات السلطان، فحينما تجلس الخاتون في عربتها تجلس عن يمينها امرأة أخرى تسمى «كجك خاتون» أي الحاجبة، وبين يديها ست من الجواري الصغار يقال لهن البنات؛ فائقات الجمال. ومن ورائها اثنتان منهن تستند إليهن، وعلى رأس الخاتون تاج صغير محلى بالجواهر بأعلاه ريشة طائر، وبين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان قد لبسو الحرير وحملوا أعمدة من الذهب.

(١٩) في الهند:

رجعت بابن بطوطة الذاكرة إلى الوراء وتذكر –حينما دخل البلاد الهندية– الفترة الأولى التي شق فيها الإسلام طريقه إلى هذه البلاد. فالجهات الأولى التي بدأ ابن بطوطة بزيارتها كانت أولى البقاع التي استولى عليها المسلمون حين أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق جيشًا تحت قيادة ابن عمه محمد بن القاسم سنة٨٩هـ لفتح السند.

دار الضيافة:

وحينما وصل ابن بطوطة مدينة «دلهي» استقبله حاجب الغرباء ويدعى (ألماز نداني)، واصطحبه إلى دار الضيافة. ومما قاله ابن بطوطة

في وصفها: إن الأسرة بها خفيفة الحمل، رجُل واحد يحمل السرير، ولابد لكل واحد أن يصطحب السرير في السفر، وفي عاصمة الهند (دلهي) زار ابن بطوطة مسجد دلهي وهو من أعظم الآثار الإسلامية بها، وكان من قبل معبدًا وثنيًا ثم حُوِّل مسجد بعد انتشار الإسلام بالهند.. وحيطانه وسقفه من الحجارة البيضاء.. واسترعى نظر ابن بطوطة في ارتفاعها فوصفها قائلًا: «صعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة، وعاينت الأسوار على ارتفاعها منحطة، وظهر لي الناس في أسفلها كأنهم الصبيان الصغار».

ومن عادتهم أن تزين مدينة دلهي بالفيلة، ورمي الدنانير والتقاط الناس لها في استقبال السلطان عند قدومه. وفي يوم استعد ابن بطوطة لمقابلة السلطان والدخول عليه، وهنا تواجهه عادة سائدة عندهم؛ وهي أنه لابد للقادم على هذا الملك من أن يقدم هدية بين يديه، ثم يكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة. وكان سلطان الهند إذ ذاك محمد شاه، وعرف ابن بطوطة الشيء الكثير عن حياته، وأنه يسدي العطايا إلى جانب إراقته الدماء كذلك.. ولكنه يمتاز بالإنعام الجزيل على الغرباء ويسميهم «الأعزة» وقد منع أن يدعوا بالغرباء لأن الإنسان إذا دعي غريبا «انكسر خاطره وتغير حاله». ولابن بطوطة في وصف اجتماعه بالسلطان وطريقة دخوله عليه كلام كثير لا داعي للإطالة بذكره.

(٢٠) جزر ذيبة المهل:

وبعد مدة شاهد فيها ابن بطوطة عجائب غير إسلامية في الهند

كإحراق النسوة لأنفسهن بعد موت أزواجهن، وكنهر الكنج المقدس ورمي الجثث المحرقة به، وكأمور السحر العجيبة. بعد هذا كله ينزل ابن بطوطة جزائر ذيبة المهل، جزر الهدوء والسلام وهي المسماة حاليا بجزائر «الملديف»، وتشتهر هذه الجزر بالجمال الطبيعي الساحر، والهدوء الشامل، والنسوة الجميلات. وذكر ابن بطوطة أنه حينما وصلها وجدها «مستديرة كالحلقة، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه، وإذا وصل المركب إلى المدخل فلابد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر؛ وهي من التقارب بحيث إذا أخطأ المركب في سيره، لم يمكنه دخولها وحمله الريح إلى خارجها. وتكتظ جزر ذيبة المهل بشجر «النارجيل» الذي يحتل مكانة مهمة في الحياة الاقتصادية بهذه الجزر؛ وهو شبيه الشعر، ويصنعون منه حبالًا، وهذا الثمر أخضر في أول أمره، وإذا قطع بالسكين سال منه ماء شديد الحلاوة، أما طعمه من الداخل فكطعم البيضة التي لم يتم نضجها بعد. وتسمى ثمرة هذه الشجرة بالجوز الذي يصنع منه الزيت، والحليب، والعسل؛ أما العسل فيصنعه عمال خصصوا لصنعه بالصعود صباحًا ومساءً على الشجر لأخذ الجوز وغلي مائه ليصير عسلًا. أما الحليب فيعمله نسوة بفتح الثمرة التي تشبه الرأس وخلط الطبقة البيضاء الموجودة بالداخل مع الماء الحلو، ويفرغ الكل في طبق ويقلب حتى يصير كالحليب بعد خلطه بالماء. أما الزيت فيعمل بتقشير الجوز وتركه بالشمس حتى يذبل، ثم يطبخ في قدور ويستخرج منه الزيت الذي يستعمل في الطبخ.

ويدين أهل جزر ذيبة المهل بالدين الإسلامي، وقد لقي ابن بطوطة حفاوة من ساكني جزيرة «كنلوس» التي انتشر فيها الإسلام على يد رجل مغربي وصل إليها، ولما وصل جزيرة المهل عاصمة الجزر كلها وعرف أمره احتفلت به السلطات وأكرمته.. وكان يتصرف في شؤون هذه الجزر امرأة تدعى «خديجة» آل إليها السلطان بعد أن انقرض جميع الذكور من سلالة بيتها، وكانت متزوجة من أحد وزراء دولتها وإليه آلت مقاليد الأمور بعد ذلك. ولما آل إلى ابن بطوطة منصب القضاء بهذه الجزر عمل جهده على إزالة العادات المستهجنة؛ كبقاء المرأة المطلقة في بين زوجها السابق حتى تتزوج غيره. وتولى ابن بطوطة منصب القضاء وأوقفه على دراسة النواحي الاجتماعية بهذه الجزر.. أما أهم شيء استرعى نظر ابن بطوطة في هذه الجزر فهو طبيعة النساء وعلاقتهن بالرجال، وأن الحياة بينهم تسودها المودة والسلام.

العادات الاجتماعية:

أما أهل هذه الجزر فعلى قدر كبير من الصلاح والتقوى؛ لذا يعيشون في هدوء شامل ويأمنون شر الإغارات التي يقوم بها القراصنة، ولقد شاع عنهم أن الله يتقبل دعاءهم وينتقم من أعدائهم. ويعتني أهل هذه الجزر بمظاهرهم، فأكثرهم يغتسل في اليوم مرتين تنظفًا من شدة الحر وكثرة العرق، ويكثرون من الأدهان العطرية، ولباسهم الفوط التي يشدونها على أوساطهم بدلًا من السراويل، ويجعلون على رؤوسهم شيئًا أشبه «بالحرام»، والبعض يجعل عمامة أو منديلًا على رأسه. أما منظر

النسوة الذي لم يعجب ابن بطوطة فهو سيرهن دون غطاء على رؤوسهن، وتمشيط شعورهن لجهة واحدة، ولا يلبسن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل. كما لاحظ مغالاة النساء في استعمال الحلي، حتى أن المرأة تجعل في ذراعيها من الأساور ما يملأ ما بين الكوع والمرفق، ومعظم هذه الأساور من الفضة. واختص نساء السلطان وأقاربه باستعمال الذهب، ومن العادات التي أدهشت ابن بطوطة وهي أن النسوة كن يؤجرن بيوت الأثرياء مقابل دفع قيمة ما تكسره من الأواني، ويصل عدد النسوة في بيوت أحد الأثرياء إلى عشرين، وإذا انتقلت أحداهن لثرى آخر أخذت استحقاقها من الدنانير. وأسهب ابن بطوطة في حديثه عن الزواج بهذه الجزر وأنه سهل ميسور لقلة الصداق، فضلًا عن اشتهار نساء هذه الجزر بحسن العشرة. قال في ذلك: «لم أر في الدنيا أحسن معاشرة من أولئك النساء، ولا توكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها، بل هي تأتيه بالطعام وترفعه بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتضم رجليه عند النوم، ومن عوائدهن ألا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة.. ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة، وبعضهن لم تأكل معي، ولا استطعت أن أراها تأكل ولا نفعتني حيلة في ذلك».

وشاهد ابن بطوطة من المظاهر الإسلامية بهذه الجزر: الاحتفال بأحد أعياد الفطر المبارك، وكيف تشترك الحكومة بهذه الجزر في هذه الأعياد. ولننظر صورة هذا الاحتفال: في صباح العيد يزين الأمراء دورهم

بالنسبة لمرور الوزير في ذهابه للمسجد، ويغرسون أشجار النارجيل الصغيرة، ويمدون الشرائط من شجرة لأخرى، ويعلقون فيها الجوز الأخضر، ويقف كلٌ أمام دراره، وحينما يمر الوزير يلفون على قدميه ثوبًا من الحرير أو القطن، ويتقدم الوزير الموكب ماشيًا على قدميه، وعلى الوزير فرجية، وجميع المواكب حفاة، والعساكر في الأمام والخلف يكبرون، والطبول تدق، وبعد الصلاة يعود الوزير وينصرف الناس إلى منازلهم. وحينما غادر ابن بطوطة جزائر ذيبة المهل غاضبًا من وزيرها كما ذكرنا ذلك في الحديث عن قضائه اتجه إلى جزيرة سيلان.

إلى مهبط آدم عليه السلام:

وألقت السفينة مرساها بجزيرة سيلان واستأذن ابن بطوطة السلطان في مشاهدة آثارها وقال: «ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلا مشاهدة آثارها وزيارة القدم الكريمة». وهي قدم آدم ويسمونه «بابا»، ويسمون حواء «ماما»، وبعث معه أربعة من الجوكية (رجال يحترفون الشعوذة) وآخرون، ويصعد ابن بطوطة جبل سرنديب والمرشدون معه، ثم يرى السحاب وكأنه أسفل منه، والأشجار التي لا تسقط ورقتها، والورد والأزهار.. وهنا يجد طريقين للوصول إلى القدم: ١- طريق بابا. ٢- طريق ماما. وطريق بابا صعب المرتقى، وفي أعلى الجبل يوجد القدم وأثره في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح، وقد غاصت القدم في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا وطولها أحد عشر شبرًا، وهناك حفرة منحوتة يضع الزوار فيها الذهب واليواقيت، فإذا وصل الفقراء تسابقوا

في أخذها، وشاهد ابن بطوطة في هذه الجزر كثرة القرود التي تتخذ لها زعيمًا منها، وكذلك وفرة أحجار اليواقيت.

آخر بلاد العالم الإسلامي في الشرق:

وأخذ ابن بطوطة –وهو في طريقه إلى بلاد الشمس المشرقة (أرض الصين)– يكرر قول الرسول الكريم: «اطلبوا العلم ولو في الصين، ولم يزاوده خوف أو رهبة كلما اقتربت السفينة من شواطئ الصين. وهنا يتذكر ابن بطوطة ترحيب أهالي الصين بالمسلين ولا سيما التجار الذين كانوا أول من وصلوهم بالدين الإسلامي ودولته.. ووفد أولئك التجار المسلمون على الصين في عهد دولة «تانج» التي حكمت الصين من٦١٨– ٩٠٧م، وسرعان ما أصبح أعضاء الجالية الإسلامية أغنى الناس في الصين، وتابع التجار المسلمون نشاطهم حتى وصلوا إلى أوربا، وظلت أحوال الصين تزداد قوة باتصالها بالمسلمين حتى القرن الثالث عشر الميلادي؛ أي قبل زيارة ابن بطوطة لها بزمن قصير؛ إذ دخل المغول بلاد الصين وتحولوا إلى الدين الإسلامي، وبذلك أفسحوا المجال أمام المسلمين من سائر الأجناس للدخول إلى الصين. وجاءت زيارة ابن بطوطة للصين وتجواله في مدنها سجلًا حافلًا عن حياة المسلمين ونشاطهم في هذه المرحلة المبكرة من اتصالهم بالشرق الأقصى.

الجمارك:

في ميناء الزيتون أول مدينة نزلها ابن بطوطة شاهد نظام الجمارك، وتفتيش المتاجر الصادرة والواردة، وتقييد أسماء المسافرين، وتطبيق

ذلك عليهم في الصورة، بعد أن يفرغ عمال الجمارك من التحقيق من شخصية التجار يكلفون صاحب المركب الذي يملي عليهم أنواع السلع التي استوردها، وكانت دقة هذا النظام سببًا في ازدهار أحوال هذه البلاد. كان للتجار المسلمين نظم خاصة من حيث علاقاتهم بعمال الجمارك وطريقة معيشتهم في الصين، وللمسلمين قسم خاص في مدينة الزيتون إليه اتجه ابن بطوطة، وقال عن التجار المسلمين هناك: «هؤلاء التجار لسكنَاهم في بلاد الكفار، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا: جاء من أرض الإسلام. وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيًا كواحد منهم». وعلم ابن بطوطة حين جال في ضواحي مدينة الزيتون أن بلاد الصين أشد أمنًا من غيرها، يسافر الإنسان منفردًا ومعه الأموال الطائلة دون أن يخشى سوءًا؛ ذلك أن أهل الصين اتخذوا في كل مرحلة من مراحل الطريق فندقًا.. ويسلم المسافرون من فندق لآخر حتى يصلوا مقصدهم.. وأكثر طعام أهل الصين الأرز والدجاج. الدجاج هناك ضخم كبير، والديك في حجم النعامة.

الحالة الدينية:

معظم أهل الصين لا يدينون بالإسلام، وإنما يعبدون الأصنام، وفي كل مدينة من مدن الصين حي خاص بالمسلمين. ولهم فيه المساجد لإقامة صلاة الجمعة، وهم معظمون محترمون. لهم في كل بلد شيخ يدعى: شيخ الإسلام يرجع إليه المسلمون في شتى شؤونهم، فضلًا عن أن لهم قاضيا خاصة بهم، وسائر سكان الصين من الوثنيين يأكلون لحوم

الخنزير والكلاب، ولكل واحد من أهل الصين عكاز يعتمد عليه في المشي ويسمونه «الرجل الثالثة».

الحالة المالية والاقتصادية:

الحرير عندهم كثير جدًا وهو لباس الفقراء والمساكين، ويستعمل أهل الصين أوراق النقد لا العملة الفضية أو الذهبية، مما يدل على علو كعبهم في ميدان الاقتصاد في هذه المرحلة المبكرة، وشراؤهم بقطع من الكاغد (ورق)، وتسمى الخمس والعشرون عندهم (الشت).

الناحية الفنية: تشتهر بلاد الصين بالفخار الصيني المنتشر في شتى أنحاء العالم.. على أن أشد ما أعجب ابن بطوطة هو براعة أهل الصين في فن التصوير الذي لا يجاريهم «أحد في إحكامه، فإن لهم فيه اقتدارًا عظيمًا». قال ابن بطوطة:«ما دخلت مدينة وعدت إليها إلا ووجدت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في كاغد على الحيطان»، وتلك هي عاداتهم في تصوير كل من يمر بهم، وذلك لعلة وهي أن الغريب إذا فعل ما يوجب عقابه ثم فر بحث عنه عن طريق هذه الصورة.

الحالة الاجتماعية: ولفت نظر ابن بطوطة تقدم أهل الصين في تأمين سبل العيش للعاجزين، وكثرة العطف على الفقراء والمساكين. ففي فنجنفو كثرت الزوايا لرعاية المحتاجين.. أما عدد الجالية الإسلامية بهذه المدينة فكان كبيرًا جدًا، وقد احتفت بابن بطوطة احتفاء بالغًا حتى أنه ظل يلتقي الدعوات طول المدة التي قضاها فيها، ورأى هناك عجائب السحرة والمشعوذين ما أدهشه كما في بلاد الهند.

ما قبل الرحلة الأندلسية والحياة المغربية:

ويتجدد الحنين والشوق عند ابن بطوطة فيعود لدى الأهل والولد، ويزور قبر والدته بطنجة، ووصل فأس أثناء العودة في شعبان عام٧٥٠ هـ، ثم أطنب في وصفها وذكر مناقب سلطانها حيث لقي منه العطف والكرم، ورفعه إلى درجة تفوق الحكام الذين اجتمع بهم في أسفاره وحيث قال: إن هيبة السلطان أبي عنان أنسته: «هيبة سلطان العراق، وحسن ملك الهند؛ فحسن أخلاقه كحسن خلق اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك، وحلمه حلم ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركستان، وعلمه علم ملك الجادة». وقال: إن بلاد المغرب يسودها الرخاء والعز والازدهار وخاصة في عهد السلطان أبي عنان، واستشهد بقول القائل:

الغرب أحسن أرض ولي دليلي عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعى إليه

وأشاد ابن بطوطة بحرص الناس هناك على التمسك بأهداب الفضيلة وانتشار العدل، كما حرص السلطان أبي عنان على ذلك وكان يخصص يوم الجمعة لمناقشة حال الفقراء. كان البدء بفحص شكاوي النساء، وبذل السلطان جهده لرعاية العلم في دولته؛ ولاسيما تفسير القرآن الكريم. وكان يشترك مع الفقهاء، ونجباء الطلبة في مناقشاتهم. قال ابن بطوطة عنه: «ولم أرض من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية».

في الأندلس:

وصل ابن بطوطة الأندلس وكان المسلمون بها يعانون أخطر مرحلة من حياتهم وهي انسحابهم أمام المسيحيين من أهل الأندلس، ومن ثم تركها وعاد إلى طنجة. ولم يفكر رحالتنا المولع بالأسفار في زيارة الأندلس إلا بعد ربع قرن من تطوافه بالآفاق، ورغم أن البر الأندلسي كان تجاه بصره منذ طفولته، إلا أن رحلته إليه جاءت متأخرة بعد الرحلة الشرقية التي دامت خمسة وعشرين سنة من ١٣٢٥إلى ١٣٤٩م، والرحلة الأفريقية التي طاف فيها أرجاء السودان الغربي واستقر المطاف به أخيرا في فأس إلى أن لقي ربه.. ولكن رحلته إلى الأندلس لم تظفر بدراسة وافية لا عنده ولا عند الباحثين، وأول بلد شاهدها ابن بطوطة من البلاد الأندلسية هي جبل الفتح، ثم يسافر إلى «رندة. أما حالة البلاد السياسية في تلك الفترة فكانت على أشدها، حيث كانت سياسة الاسترداد الأسباني للأندلس العربية في عنفوانها، وكانت أهداف مملكة قشتالة ترمي إلى القضاء على الحكم العربي في بلاد الأندلس، وتوحيد أسبانيا، ووضع الحد الفاصل موضع التنفيذ لوجود الكفاح بين العرب والأسبان، هكذا كانت الحالة السياسية ولم يشر ابن بطوطة إلى ذلك، ولكنه أشار إلى شيء من هذا؛ قال على رحلته إلى الأندلس «كان ذلك أثر موت طاغية الروم الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة سنة ١٣٥٠م».

أما ما قاله في وصف قشتالة فهو: (إشارته إلى أنها تقع في وسط منطقة تشتهر بزراعة الزيتون، وأنها معقل يحمي مدينة مالقه، وأنها من

أمتع معاقل المسلمين وأجملها وضعًا). ثم يتحدث عن الطرق فيما بين البلاد الأندلسية وأنها مخيفة؛ ولنقرأ مثلا قوله في وصف الطريق بين رندة وقربلة قائلًا: «والطريق بينهما صعب شديد الوعورة». «أما مالقة فوصفها قائلا: إنها إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان». ثم يركز جهده على الأمور الدينية التي يهتم بها كثيرًا في رحلته؛ فبدأ بالحديث عن مسجدها الكبير، وأنه مجمع للقضاء والفقه، فحينما دخل ابن بطوطة مالقة وجد قاضيها قاعدًا في الجامع الأعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون ما لا يرسم فداء للأسرى.. ولا شك أن هذا الوضع يوجد كثيرًا من بلاد العالم الإسلامي، وحدثنا ابن بطوطة عنه في أكثر من موضع.

هذا ولما وصل غرناطة وصف جمال موقعها وحسن بنيانها، وتكلم عن أنهارها، ثم سياستها، ورياضها، وقصورها؛ ولكن فاته شيء مهم جدًا في نظري ونظر غيري من الباحثين، حيث إنه لم يشر بكلمة واحدة إلى درة غرناطة وأعجوبتها التي لا تزال لليوم تسترعي الأنظار. وتجتذب السائحين من أقاصي البلدان؛ إلا وهي قصور الحمراء المشهورة. وذهب الدكتور جمال مرسي بدر في مقالة بعدد ٤٢ من مجلة المجلة ١٩٦٠م عن ابن بطوطة وزيارته للأندلس إلى أن إغفال ابن بطوطة الحديث عن قصور الحمراء كان بدافع الإيجاز والاختصار..إذ إن رحالة دقيق الملاحظة كابن بطوطة لا يمكن أن تفوته مثل هذه التحفة المعمارية.. ولعل ذلك لأن قصور الحمراء لم تكن قد تجلت في صورتها الأخيرة في زمن زيارته؛ إذ إن كثيرًا من معالم الحمراء وخاصة بهو السباع (أشهر تلك

المعالم) لم يبن إلا على عهد محمد الغني بالله: وهو خلف يوسف أبا الحجاج ملك غرناطة الذي كان على العرش في زمن زيارة ابن بطوطة للأندلس.. وذهب الدكتور إلى أن السبب ربما يكون فيما يبدو لأن ابن بطوطة لم يدخل تلك القصور؛ إذ يقول: «إنه لم يلق السلطان أبا الحجاج يوسف بسبب مرض كان به». فلعل رحالتنا إذن لم ير الحمراء ولم يطرق بابها «باب الشريعة».

هذا ما كان من أمر وصف ابن بطوطة للأندلس وهو فيما يبدو ضئيلًا جدًا، وهذا يرجح رأيي في أن ذهابه للأندلس كان لبعثة سياسة سرية شغلته عن دراسة أحوال البلاد ووصفها.

في السودان الغربي:

وقبل أن يفكر أي رحالة في دراسة أحوال السودان ذهب إليها ابن بطوطة وحاز قصب السبق في ميدان الاكتشاف.. وقد سبق الإسلام ابن بطوطة في الانتشار في السودان وأخرجهم من الظلمات إلى النور. وأخبار ابن بطوطة عن السودان دليل على أنهم جديرون بتبؤو مكانة عالية في مضمار الحضارة العالمية، وقد انتشر الإسلام في السودان عن طريق بلاد المغرب بعد عبور الصحراء الكبرى.. وبدأ ظهور الإسلام بجلاء في أرض السودان الغربي في عهد «يوسف بن تاشفين» أحد أمراء دولة المرابطين ببلاد المغرب سنة ١٠٦٢م ، وجاء انتشار الإسلام بين السودانيين حافزًا على ازدياد العمران.

المجتمع السوداني في «ايوالاتن»: أعجب ابن بطوطة في هذه

المدينة ببساطة حياة أهلها، ولا سيما كبار حكامها؛ فقد كان «الغرباء» أو الحاكم يبذل قصارى جهده في حفظ أمتعة التجار، ويستقبلهم حين وصولهم، ويشرف عمدة المدينة أو نائب الحاكم على راحة الضيوف. أما ثياب أهل المدينة فمن نسيج مصر، نساؤها جميلات، والمدينة شديدة الحر، ويقل بها النخيل الذي يزرع في ظله البطيخ. ورغم تمسك أهالي المدينة بالإسلام فقد شاعت بينهم عادة اختلاط الرجال بالنساء وقال: «إن رجالهم لا غيره لديهم ولا ينتسب أحد إلى أبيه بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، ونساؤهم لا تحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات، والنساء هناك يكن لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك». على أن أهالي هذه المنطقة من السودانيين لم تقهم بعد تعاليم الإسلام لقلة الدعاة والمعلمين؛ وذلك على العكس من شرق السودان الذي يفهم تعاليم الإسلام.

ومن عادة السودانيين في أسفارهم أن الإنسان لا يحمل معه في الطريق طعاما ولا نقودا وإنما قطعا من الملح وحلى من الزجاج وبعض العطور ويشتري وهو في طريقه من نساء القرى ما يشتهى. ويحرص المسافر هناك، كما حدثنا ابن بطوطة- على شراء نبات يسمى « الفوفي » أشبه بحد الخردل يصنع منه الكسوة والعصيدة.

ومن عادة السودانيين في أسفارهم أن الإنسان لا يحمل معه في

الطريق طعامًا ولا نقودًا؛ وإنما قطعًا من الملح، وحلي من الزجاج، وبعض العطور، ويشتري وهو في طريقه من نساء القرى ما يشتهي.. ويحرص المسافر هناك –كما حدثنا ابن بطوطة– على شراء نبات يسمى «الغتص» أشبه بحب الخردل يصنع منه الكسوة والعصيدة.

الزراعة: كلما سار ابن بطوطة شرقا رأى من مظاهر الإسلام الكثير، وأعجب بأهل زاغة، وذكر أنهم قدماء في الإسلام. والواقع أن هذه المنطقة التي تقع على فرع نهر النيجر(الذي ظنه ابن بطوطة نهر النيل) كانت أول معقل للإسلام بالسودان في بداية القرن الخامس الهجري، وكان لهذه المنطقة المسماة (مملكة تكرور) اتصال بمصر، ولاسيما أنها كانت ترسل أبناءها إلى الأزهر للتفقه في الدين.. ولما وصل حاضرة مملكة السودان المسماة (السودان) وجد عادة مشابهة لغيرها في بلاد الإسلام؛ وهي إذن الدخول إلى البلد.

مالي:

أما مدينة مالي فكانت متقدمة حضاريًا، وحرص أهاليها على الاحتفال بالمواسم الدينية الإسلامية، وكان سلطانها مشاركًا للشعب في احتفاله بالأعياد ومباهجها، حيث يذهب للصلاة ومعه غطاء (طيلسان) أسود، ومعه الناس وعليهم الثياب البيض الحسان. ويُجرى احتفال بعد الصلاة يشهده السلطان، ويجلس على مرتفع وخلفه الأمراء الأربعة يبعدون عنه الذباب، وهذه العادة أشبه بمثلها في كثير من بلاد الإسلام. ثم يغني النساء ويؤدي الصغار حركات بهلوانية.. ثم يعقب هذا الحفل ما

يشبه أعياد الكرنفال واتخاذ صورة رمزية يتنكر فيها المحتفلون. واقتصر هذا التنكر على الشعراء، ففي يوم العيد يدخل الشعراء على السلطان وكل منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش لها رأس من الخشب ومقار أحمر كأنه رأى «الشقشاق»، ويلقون قصائدهم على مسمع من السلطان وبين يديه، وكانت أشبه بالوعظ، ويختم الشعراء حفلهم بعادة سودانية قديمة ترجع إلى ما قبل اعتناقهم الإسلام، حيث يصعد كبير الشعراء إلى مقر الشعراء ويضع رأسه في حجر السلطان ثم على كتفه الأيمن فالأيسر ويعود لتوه.

وأعجب ابن بطوطة بحرص السودانيين على حضور الصلوات في ملابس نظيفة، واهتمامهم بتعليم أبنائهم القرآن الكريم مما يدل على قوة روح الإسلام هناك.

وبعد حديثه عن فرس البحر الذي شاهده بنهر النيجر وهو في طريقه إلى تمبكتو وطريقة صيده وأن عظامه تُرى منتشرة على الشاطئ.. بعد هذا كله أخذ في الحديث عن قوم يسمون:

نبام نيام:

وهم آكلوا لحوم البشر، وقابل هناك الكثير من الرجال الذين حدثوه عن أخبار هؤلاء القوم، وسمع كذلك ابن بطوطة أن جماعة من أولئك السكان آكلي لحوم البشر وفدت على السلطان ومعهم أمير لهم، ومن عادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطًا كبيرة؛ فتحة القرط منها نصف شبر، وقد أكرمهم السلطان وأعطاهم في ضيافته خادمة ذبحوها وأكلوها

ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمائها. وقد سألهم بعض الناس عن أطيب لحوم البشر فقالوا: الكف والثدي. ولا شك أن دقة ابن بطوطة أبت إلا أن يذكر أخبار هؤلاء القوم عما سمعه لأنه لم يشاهدهم ولم يذهب إلى بلادهم.

تمبكتو:

وفي تمبكتو: شاهد أهاليها يضعون اللثام على أفواههم، وشاهد شدة اتصال المصريين بالسودانيين وخاصة في السودان الشرقي، لاسيما في النواحي التجارية. وفي حديث ابن بطوطة عن السودانيين وخاصة في السودان الشرقي لاسيما في النواحي المتزايدة، وكلما زاد في توغله شرقًا ازدادت أخلاق الأهالي حسنًا ورقة. وفي آخر حديثنا عن وصف ابن بطوطة للمجتمع السوداني نذكر هذه القصة.. وفي مرور ابن بطوطة على إحدى القرى احتاج لشيء من الذرة، فعرج على عمدة هذه القرية وكتب له لوحًا يطلب منه قدرًا من الذرة.. وحينما علم العمدة بطلب ابن بطوطة اصطحبه من يده وأدخله قاعة كبيرة بها كثير من السلاح، وأراه كتبًا لابن الجوزي أحد مؤرخي المسلمين، وقد قرأ فيه ابن بطوطة بعض الشيء، ثم قدم له مشروبًا يسمى «الدقنو» وهو عبارة عن ماء فيه جريش الذرة المخلوط بالعسل واللبن، وهذا الشراب يستعاض به عن الماء الذي يضر شربه –عندهم– وحدة الجسم وكمال بنيانه، وهذا إجمال لحديث ابن بطوطة عن السودان.

١) أن أهل ايوالاتن كانوا يحتقرون البيض من البشر، ولا شك أن بعض هذه العنصرية لا زالت في أفريقيا الشرقية.

٢) أن التجار المصريين كانوا أصحاب نفوذ في كثير من تلك الجهات، وخاصة في مالي.

٣) كان العرب في مملكة مالي لا يتكلمون لغتهم؛ لذلك كان في بلاط المملكة مترجم رسمي هو الذي ترجم بين ابن بطوطة والملك.

٤) كما أشرنا ظن أن بطوطة أن نهر النيجر هو نهر النيل، وقد ظل هذا هو الرأي حتى أواخر القرن الثامن عشر.

خاتمة:

إلى هنا نكون قد وضعنا النقط على الحروف وسلطنا الأشعة على الجوانب البارزة من حياة ابن بطوطة وتصويره للمجتمع الإسلامي الذي طاف جوانبه وهو في تلهف للكشف والمعرفة، وتعتبر أوصاف ابن بطوطة للشعوب التي زارها مرجعًا تاريخيًا وجغرافيًا لا غنى للباحث عنه.. ولاسيما إذا علمنا أنه كان رحالًا محترفًا لم يكن يبغى من وراء رحلته شيئًا سوى إشباع الرغبة في الكشف والتجوال ودراسة العادات المختلفة والطبائع المتباينة.

وقد ذاع بين الناس من أخباره ذلك الجانب الخاص برحلته في بلاد الشرق: كالهند، وجزر المحيط الهندي، وأندونيسيا (بلاد الجاوة)، والصين، كما اشتهرت بينهم تلك البلاد المجهولة. وقد أخذ هذا الجانب من أخباره جزءًا غير قليل أثناء حديثه عن مشاهداته في العالم الإسلامي. وجاءت أوصافه لتلك البلاد لوحة فنية رائعة قدمها لنا في ساحة الفن

التاريخي والجغرافي. وكان يتحرى الصدق في كل ما يقوله إلى أن دفعه هذا التحري إلى استعمال ألفاظ يستهجن ذكرها، وحتى لا نغمط الرجل حقه أيضًا نلفت النظر إلى أنه قدم لنا صورة صادقة للأحوال السياسية في كل بلد نزل به، وكيف كان سلوك السلاطين والأمراء مع الغرباء والقاطنين؟، وكيف كانت العادة لديهم في استقبال الضيف القادم؟. هذا بالإضافة إلى أنه كان أستاذًا للسلوك الاجتماعي، مصلحا لما اعوج من الأمور مما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي، وصافا بارعا لما يشاهده.. ولهذا لا علينا إذا وضعناه في الصف الأول من الرحالة الناجحين.

أما أروع لمسة في حياة ابن بطوطة فهي أنه كان مغامرًا إلى حد أنه كان لا يخاف الأخطار مهما بلغت.. كان يركب البحر مع سابق علم بأن هذه السفينة غير آمنة، ولكنه كان يتخذ من إيمانه واعتماده على الله سلاحًا يقيه شر الأهوال.. وكم وقع في معارك مع الكفار ويجوز النصر.. وأخذ من اعتماده على نفسه سندًا في كل شيء، ونحن نعرف حكاية عيشته وكيف أدلى بطرف ثيابه في البئر أثناء ذهابه للصين وعصره في فمه ولما لم يشف غلته أدلى بحذائه فوقع عند إخراجه، فأحكم رباط الآخر وشرب وروي.

وحينما لجأت في بحثي هذا إلى إنصاف ابن بطوطة لم تكن محاباتي به لمجرد المحاباة؛ ولكن ذلك باعتماده على المقارنات التاريخية، وبالرجوع إلى رحلة الرجل نفسه، ودراسة حياته، ومعرفة أن رجلًا كهذا لا يعرف الدجل ولا دعاء الكاذب.. أما أولئك الذين نبشوا

قبر الرجل فلم يكن ذلك إلا لأجل رغبة في المناقشة حتى لا تضيق صفحات أبحاثهم، ولتنمية هواية في الجدل الذي لا يعتمد على الدليل العلمي الصحيح، ولا يصل إلى نتائج البحث إلا عن طريق غير مستقيم لا يبدو مضيئًا لكثرة التواءاته مع وصوله إلى مفترق واضح.

ولقد راعني هذا المؤلف الكبير الذي قدمه لنا ابن بطوطة وأدهشني قيمة جهده الكبير، وقرأت في اطمئنان كل ما كتبه فأعجبت به أيما إعجاب، ولم أبدأ في بحثي هذا ولا في كتابة أي حرف عن الرجل إلا بعد أن شبعت من تناول أشهى الألوان العلمية على مائدته التاريخية، وتحفته الفنية الرائعة التي لن يخطئ حين سماها «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

الفهرس